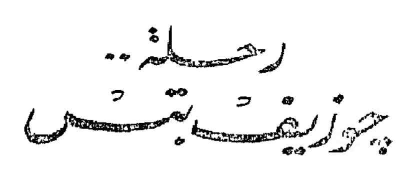

رحلة
جوزيف بتس

الألف كتاب الثانى

رحلة ..
چوزيف بتس
(الحاج يوسف)
إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة
١٩٩٥

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

A faithful account of the religion and manners of the Mahometans, ... and apilgrimage to Mecca ... and a description of Medina.

by

JOSEPH PITTS

الفهـــــرس

جوزيف بتس ورحلته
بقلم المترجم

ترجع أهمية رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الى مصر والديار المقدسة سنة ١٦٨٠ الى أن بتس هو أول انجليزى فى التاريخ الحديث يزور مكة المكرمة(١) ، كما أنه أول رحالة فى التاريخ الحديث يصف طريق الحج الغربى ، أو درب الحجاج (البرى والبحرى) من بلاد المغرب ــ مرورا بمصر ــ حتى يصلوا الى الديار المقدسة ، ويجد قراء العربية كثيرا من المعارف عن درب الحج الشامى ، أى قوافل الحج القادمة من الشام ودرب الحج العراقى (٢) ، لكنه ــ أى القارىء العربى ــ لا يكاد يجد شيئا عن درب الحج أو دروبه القادمة من المغرب مارة بمصر ، وسيجد القارىء أن الحجاج كما كانوا يعانون من هجمات بدو الصحراء ، فانهم أيضا كانوا يعانون من الهجامة أثناء سير سفنهم فى النيل من رشيد الى بولاق .

واذا كان جوزيف بتس هو أول انجليزى (وثانى أوروبى) يزور مكة المكرمة فى التاريخ الحديث (٣) ، فهو أيضا أصغر رحالة ، حتى اننى كدت أجعل عنوانا لترجمتى هذه (رحلة الصبى جوزيف بتس لمصر والديار المقدسة) . لقد ولد جوزيف بتس فى اكسون Exon بانجلترا ودفعه ذكاؤه وحبه للمعرفة ــ فيما يقول الرحالة بيرتون ــ الى مغادرة انجلترا سنة ١٦٧٨ وهو لا يزال غض الاهاب لم يتجاوز الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، ليرى

العالم من حوله ، وعمل بحارا ــ وهو في هذه السن ــ على احدى السفن ، وكانت حروب الجهاد البحرى التى يشنها البربر وبقايا المسلمين المطرودين من الأندلس ، والترك ــ لا تزال مستعرة في البحر المتوسط ، ــ ومن المعروف أن المؤلفين الأوروبيين يطلقون اسم القرصنة على حرب الجهاد البحرى تلك ــ والذى يهمنا فى هذا الصدد أن هذه الظروف أدت الى وقوع جوزيف بتس فى أيدى أحد البحارة الجزائريين ، فاتخذه عبدا ، وعاش العبد بتس فى كنف سيده بضع سنين ، ثم اصطحبه ليحج معه الى مكة (المكرمة) وليزور المدينة (المنورة) • وسلك بتس مع سيده طريقا بحريا الى الاسكندرية فرشيد ، ثم أبحرا فى النيل للقاهرة ، ومن ثم للسويس فالطور فرابغ على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، فجدة وهناك استقبله المطوفون وصحبوه الى مكة المكرمة ، وبعد أداء الحج زار المدينة المنورة وعاد للقاهرة ، وأصيب بالطاعون فى الاسكندرية ، لكنه شفى فى الجزائر •

لقد كان مجمل الفترة التى قضاها بتس فى بلاد المسلمين ــ خاصة الجزائر ــ يصل الى خمسة عشر عاما ، فبعد وقوعه فى الأسر قضى فى كنف سيده ــ كما سبق القول ــ بضع سنين ، وبعد أدائه لفريضة الحج أعتقه سيده واعتبره بمثابة ابن له ، وكتب له ما يفيد عتقه ، وعاد بتس ــ باختياره ــ الى الجزائر وعاش مع سيده السابق سنوات طويلة قبل أن يفكر فى الهرب ، وهذه المدة الطويلة كانت كافية ــ فيما يقول الرحالة العالم رتشارد بيرتون ــ كى تجعله ملما بكثير من المعلومات عن المسلمين وعن أحوال البلاد التى رآها ــ رغم أنه لم يحظ بقسط كاف من التعليم • فكتاباته ــ فيما يقول بيرتون ــ تخلو من الأحكام المسبقة والتعصب والميل للخرافة كما أنه ليس ساذجا ــ رغم صغر سنه ــ ولا سريع التصديق • ورغم أقوال بيرتون تلك ــ وهو رحالة متعاطف مع العرب والفكر الاسلامى ــ فان

بتس قد وقع في جملة اخطاء سنعرض لها في سياق هذا البحث . لكن بيتس — على أية حال — لم يقع في الاخطاء نفسها التي وقع فيها الرحالة الذى سبقه ، بسبب معرفته — بحكم الاقامة — للغتين العربية والتركية .

وقد كان سيده قائدا لكتيبة خيالة (فرسان) ، وكان أثناء شبابه — كما روى بتس — رجلا خليعا لم يترك منكرا الا فعله ، ولا اثما الا اقترفه . كما كان قاتلا ، فلما تقدم به العمر قرر أن يكفر عن آثامه الماضية بدعوة عبده للاسلام وكانت الدعوة للاسلام فى نظر هذا التركى لا تعنى أكثر من ثلاثة أمور :

١ — أن يشهد ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وقد فعل ذلك وهو يشير باصبعه السبابة عند قوله لا اله الا الله .

٢ — أن يخضع لعملية الختان .

٣ — أن يمتنع عن أكل لحم الخنزير .

لكن بيتس يقدم لنا دليلا على أن الدعوة للاسلام ولأى دين آخر ، لابد أن تكون بالاقناع لا بالضغط المادى أو الاقتصادى أو أى ضغط آخر ، فان بتس — الذى يحدثنا عنه بيرتون قائلا انه كان يكره الكاثوليكية كراهية شديدة لا تقل عن كراهيته للمذاهب المسيحية فى الشرق — يفخر بأن اجباره على التحول للاسلام لم يغير شيئا فهو كان يصلى بغير وضوء أو طهارة وكان يجد سعادة غامرة عندما يسمع عن وصف المسلمين بأنهم يهود أو كاليهود ، ووصف نبيهم صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل السبت أى يهودى Sabbatero ولهذا التحامل تفسيره التاريخي الذى سنفرد له فقرات فى هذه الدراسة . كما كان — أى بتس — يأكل لحم الخنزير بشراهة عندما يكون منفردا .

وقد أحزن بيتس كثيرا ان يجد كثيرين من الأوروبيين يعودون للجزائر باختيارهم بعد أن أتيحت لهم فرصة التحرر ليعتنقوا الاسلام بقناعة كاملة دون أى ضغط عليهم « ... Without the least force used towards them » .

ويقرر بيتس ـ بوضوح كامل ـ أن حالته تعتبر استثناء من قاعدة ، فهو لم ير ولم يسمع ان المسلمين أجبروا احدا على التحول للاسلام فى الجزائر او مصر أو الحجاز ٠

ويستخدم بيتس الألفاظ الشائعة فى عصره على المستوى الشعبى فهو يطلق على المسلمين أحيانا Moors ، وهو الاسم الذى شاع فى أوروبا بعد سقوط غرناطة للدلالة على المسلمين ، وأحيانا Turks وهو الاسم الذى شاع فى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية للدلالة على المسلمين ، ولكن رحالتنا يضيف اسما جديدا وهو « أصحاب السبت » لا ليقصد اليهود وانما ليقصد المسلمين لأسباب سنوضحها ٠

وقد أتيحت لبيتس فرصة الهرب عندما أرسل السلطان العثمانى للجزائر طالبا سفنا ، وسمح لهذا الانجليزى المتحول للاسلام بالركوب على متن احداها ، بناء على خطاب توصية من السيد باكر Baker القنصل الانجليزى فى الجزائر ، الى السيد راى Raye القنصل الانجليزى فى تركيا ٠

ولقد تردد بيتس كثيرا فى الهرب ، وراح يطرد أفكار العودة الى انجلترا مرارا ، بل وفكر فى العودة للجزائر والعيش كمسلم بقية حياته ، ولكنه تغلب على هذه الأفكار فى النهاية ، فبعد فترة عناء فى تركيا أعانه أحد التجار الانجليز بأربعة جنيهات استرلينية ساعدته فى السفر الى جنوة Leghorn فى سفينة فرنسية ، ولما وصل الى هناك سجدلله شكرا لعودته لأرض المسيحية الأوروبية ، فجاب ايطاليا وألمانيا وهولندا واستقبل بعطف وترحاب فى هذه البلاد ، لكنه عندما عاد لانجلترا واجه بعض المتاعب فندم على تركه

للجزائر ، لكن أموره استقامت بعد ذلك ، اذ قابله أبـوه بعواطف جياشة أما أمه فقد ماتت قبل وصوله بقرابة عام ٠

وقد أصدر يوسف بتس بعد آن ازداد علما وثقافة كتابا أسماه (حقائق عن الاسلام) أصدره سنة ١٧٠٤ في لندن ــ أى بعد رحلته بأكثر من عشرين عاما ، وقد تعرض فيـه لنظام الحكم في الجزائر فى ظل العثمانيين ، ومما يؤسـف له أننى لم أتمكن من الحصول على هذا الكتاب أو قراءته (٤) ٠

الظروف التاريخية التي تمت فيها الرحلة :

تمت هذه الرحلة كما سبق أن أشرنا سنة ١٦٨٠ ، وفى هذه الفترة كان الصراع لا يزال مستعرا فى منطقة البحـر المتوسط بين البربر والمورسكيين ــ وهم المسـلمون الذين طردوا من اسبانيا ــ تؤازرهم الدولة العثمانية ــ من ناحية ، وقوى الاستعمار الأوروبى ممثلة فى أسـبانيا والبرتغال خاصة من ناحية أخرى ، وان دخلت سائر القوى الأوروبية ــ بشكل قل أو كثر ، لسبب أو لآخر فى هذا الصراع (٥) ٠

والذى يهمنا فى هذا الصدد تأثير ذلك على أفكار رحالتنا بيتس وأسلوبه ، اذ نجده ــ كما سبق أن وجدنا عند سلفه فارتيما (٦) ــ يستخدم كلمتى moors و Turks ليعنى بهمـا المسلمين ، بل انه يقول عن شخص تحول للاسلام بأنه أصبح تركيا ٠

والشيء الطريف فى هـذه الرحلة أن رحالتنـا بيتس عندما كان يريد أن يصب جام غضبه على أهل المناطق التى مر بها فى الجزائر أو مصر أو الحجاز ، فانه كان يصـفهم بأنهم «أصحاب السبت»، وعندما يتحدث عن يوم الجمعة، يقول: « وهو يوم سبتهم » **أى يوم عبادتهم** their Sabeth ، بل انه عندما أبدى بعض عبارات الكراهية لسيدنا محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وصفه ــ كذبا ــ بأنه سبتى والكلمة تعنى أنه يهودى أو كاليهودى Sabbatero ، وفى المقتطفات التى رجعنا اليها فيما كتبه عنه بيرتون عرفنا أن أشد ما كان يؤرقه عندما هرب من سيده الى تركيا أن يموت فيدفن فى مقابر اليهود ، وهو هنا يقصد المسلمين لأنه من المفترض أن الجميع يعلمون باسلامه وأنه الحاج يوسف ٠

ترى ما سر هذه الكراهية الشديدة التى يكنها بيتس لليهود ؟ فمع أنه لم يكن كاثوليكيا ــ بل لقد اشترك فى الحرب ضدهم(٧) ــ ولم يكن يميل لمسيحيى الشرق ــ فيما يقول الرحالة العلامة بيرتون ــ الا أننا لا نشتم فى رحلته نقدا لهم ، وانما اكتفى بين الحين والآخر بتشبيه المسلمين تشبيها ضمنيا باليهود ٠

لا يمكن فى الواقع فهم ذلك دون المام بالظروف التاريخية التى تمت فيها الرحلة ، فقد كانت أوروبا كلها فى ذلك الوقت تنظر للمسلمين كحماة لليهود ، فالدولة العثمانية والعالم الاسلامى هو الذى استقبل اليهود المطرودين من أسبانيا فى حين رفضتهم أوروبا كلها (راجع ترجمتنا لكتاب بول كولز : العثمانيون فى أوروبا ــ العدد ١٢٦ من هذه السلسلة) ولم تكن أوروبا كلها راضية عن هذا التحالف(٨)، وقد أصبح من المؤكد من خلال بحوث وثائقية واحصائية أن الكراهية الأوروبية بل والاسبانية كانت موجهة أساسا ــ فى هذه الفترة التى امتدت زهاء قرنين ــ لليهود وليس للمسلمين، فلم يكن اخراج المسلمين من الأندلس عقب سقوط غرناطة مطلبا شعبيا وانما كان عملا قادته مؤسسات متعصبة ، وعارضه العامة من الناس وعارضه حكام الولايات ، كما عارضه بشدة أصحاب الأراضى الاسبان (٩) ، فقد كان العداء موجها لليهود بشكل أساسى لأسباب اقتصادية فى المقام الأول والذين أجبروا على الخروج من غرناطة هم اليهود ٠ أما المسلمون فقد ترك لهم فى البداية حرية الاختيار بين الاقامة

والرحيل وبعد ذلك بفترة انحصر الاختيار بين الرحيل وقبول التعميد ، وفى مطلع القرن السابع عشر أجبروا جميعا على الرحيل ، وكانت السلطات تستعين بقوات من خارج اسبانيا لترحيلهم لرفض الاسبان القيام بهذا العمل ، لأنهم كانـوا يعتبرون اخراج المسلمين نكبة تضر بالاقتصاد الاسبانى ، وهذا ما أثبته التاريخ بعد ذلك ٠

لقد استخدم رحالتنـا بيتس ـ اذن ـ مفـاهيم عصره ومصطلحات عصره ، ولم يكن سعيدا بهذا التحالف ، خاصة وأن الاصـلاحيين الدينيين وفى مقـدمتهم لوثر أشـاروا بوضوح فى بداية الحركة الاصـلاحية الدينية الى خطـورة الممارسات الاقتصادية اليهودية على أوروبا ، ووصـل الأمر بمارتن لوثر الى تحريم الربا Usuary (١٠) ، لـكن الأمور بعد ذلك ـ على أية حال ـ سارت مسـارا مختلفـا ، وتلك حكاية أخرى لم تدرس بعد دراسة كافية رغم أهميتها ٠

★★★

بعض ما أضـافته رحلة بتس للتـاريخ المصرى فى القـرن السابع عشر :

● ماء النيل ، وكيف يسرقه أهل جنوة والبندقية :

ومن المعلومات الطريفة والجـديدة التى أوردها بيتس أن أهل جنوة والبندقية ـ فى النصف الثانى من القرن السابع عشر على الأقل ـ كانوا يرسلون سفنا الى قرب مصب نهـر النيل لملئها بماء النيل العذب ٠٠ يقول بيتس : « ٠٠ وأظن أننا قطعنا من الاسكندرية حوالى خمسة فراسخ أو ستة فى اتجاه الشرق ، قبل أن نصل الى مصب نهر النيل الشهير فى البحر المتوسط ، حيث وجدنا لون الطمى يكاد يصبغ البحر المتوسط بلونه ، ويغير طعمه من الملوحة الى العذوبة ٠ ولقد

شربت من ماء النيل وانا على مسافة غير قليلة داخل البحر المتوسط ، فلم أجده مالحا البتة ، وقد عجبت لذلك كثيرا وتأكد لدى ما كنت أسمعه • وقد أخبرني ثقات أن أهل جنوة والبندقية يحصلون في أغلب الأحيان على الماء العذب من مصب النيل ، وهم يفعلون ذلك دون التعرض لأى خطر فليس لدى الأتراك أساطيل للدفاع عن ساحل مصر » ••

● بعض المصاعب التى يواجهها الحجاج أثناء الرحلةالنيلية :

واذا كانت كتب الرحالة قد أفاضت في الحديث عن المتاعب التي تواجهها قوافل الحجاج في شبه الجزيرة العربية بسبب هجوم البدو ، فان بتس يحدثنا أن سفن الحجاج في النيل تتحسب كثيرا لسرقات اللصوص الذين يكثرون في هذا الوقت ، لعلمهم أن الحجاج يحتفظون معهم ببعض الأموال •

● عن الحياة الاجتماعية فى مصر :

ويأسف بيتس لشيوع الفسق في القاهرة ويعتقد أن السلطات تشجع ذلك (كانت مصر — كما هو معروف تابعة للدولة العثمانية منذ سنة ١٥١٧ ، وان ظل الحكم الفعلى للمماليك) ، ويصف بيتس الداعرات وصفا طريفا فيه بعض التفصيل ، ويتحدث عن اختلال الأمن وخطورة مغادرة الخان بعد الغروب (بعد ايقاد الشموع) كما يتحدث عن كثرة الغش وكثرة المتسولين ، ويحدثنا عن سوق الجوارى وكيف أنه من حق المشترى أن يعرف ان كانت الجارية التى سيشتريها عذراء أم لا وذلك بدون تطرف ، ويورد بعض التفصيلات عن شيوع الطاعون في مصر ١٦٨٠ بعد عودته من مكة المكرمة وكيف أنه كان يحصد الناس حصدا ، ويشير لكثرة الأجانب فى القاهرة ذاكرا أن بها مالا يقل عن اثنتين وسبعين لغة •



ولعل من أهم ما أورده بيرتون فى رحلته مخططا للمسجد الحرام بمكة المكرمة • مما يفيد المهتمين بتاريخ هذا المسجد وتاريخ الكعبة المشرفة ، ويجد المطالع لهذه الترجمة هـذا المخطط فى نهاية هذه الدراسة •

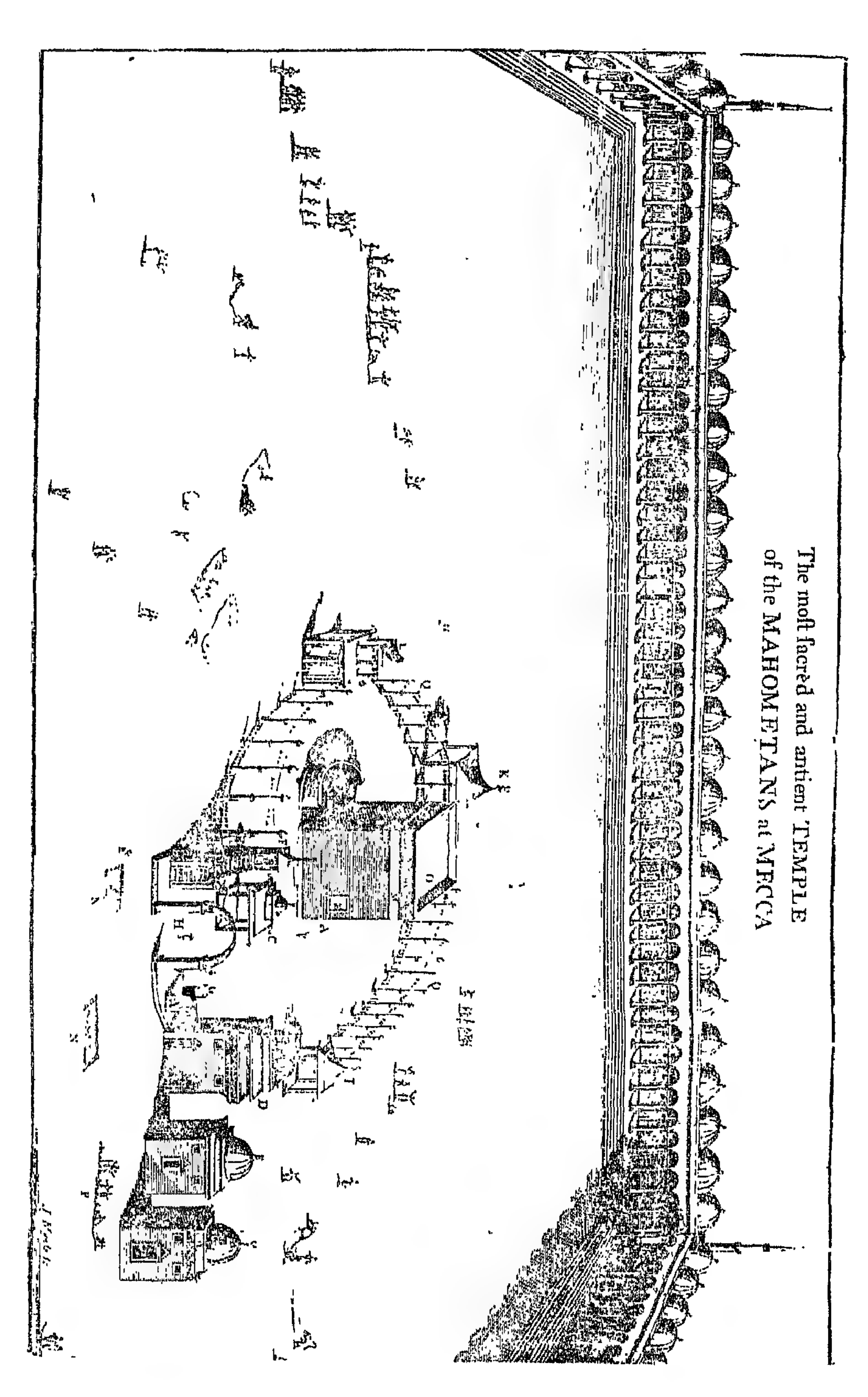
وأخيرا فقد قدمنا هذه الترجمة كاملة لم ننقص منهـا شـيئا وألحقنـا بهـا ملحقا للتعليقات ، وان كانت بعض الاشارات المهمة قد أوردناها فى الصفحات ذاتها مع اشارات واضحة تفيد أنها تعليق من المترجم •

والله من وراء القصد •

د • عبد الرحمن عبد الله الشيخ

مفتاح مخطط بتس للمسجد الحرام :

A	الحجر الأســود
B	الحجر الأبيض أو الحجر (بكسر الحاء وتســكين الجيم)
C	مقــام ابراهيم
D	المبنى الذى يغطى بئر زمزم
E	باب الكعبة (المشرفة)
F	المنبر
G	(لم نتمكن من قراءتها فى النص أسفل المخطط)
H	البــوابة القديمــة
I	(لم نتمكن من قراءتها فى النص أسفل المخطط)
J	(لم نتمكن من قراءتها فى النص أسفل المخطط)
K	مقــام المالكية
L	مقــام الأحناف
M	كتابات مذهبــة
N	ســـــجاد
O	الميزاب الذى يحمل ماء المطر المتساقط فوق الكعبة ليصبه فى المطاف
P	موضع توزيع جرار ماء زمزم
Q	مصابيح تضاء ليــلا



The moſt ſacred and antient TEMPLE of the MAHOMETANS at MECCA

الترجمة الكاملة

لنص رحلة چوزيف بتس

الحج الى مكة

الحج الى مكة (المكرمة) فرض على كل مسلم (المترجم : **يعلم كل مسلم أنه يحج لبيت الله الحرام بمكة المكرمة لا مكة ذاتها)**(★) ان كانت حالته الصحية وحالته المالية تساعدانه على ذلك ، لكن كثيرين — الآن — بدءوا فى اهمال هذه الفريضة (القرن السابع عشر) (★★) .

فكرة عن أهم قوافل الحج :

وهناك أربع قوافل حج تصل لمكة (المكرمة) كل عام ، فهناك — أولا — القافلة المغربية التى تصل لمكة (المكرمة) قادمة من غرب العالم الاسلامي ، من فاس ومراكش ، حيث يتجمع الحجاج في هذه القافلة ويلتحقون بها من سائر بلاد المغرب ، وهى قافلة برية فى الأساس ، وعندما يصل الحجاج لمصر يدبرون أمر وصولهم لمكة المكرمة والعودة لمصر مرة أخرى . ويصدر أمير الحج أمرا للقافلة بالتوقف فى كل مدينة يمر بها ، ليتيح الفرصة لمن يرغب للالتحاق بالقافلة ، ويستقبل أهل المدن التى تتوقف عندها القافلة أمير الحج ببهجة بالغة لمكانته الدينية ، فسعيد هو من يستطيع تقبيل يده ، فان لم يستطع فعباءته ، ويمضى أمير الحج فى موكب فاخر تصحبه الأعلام والطبول ، ليس هذا فحسب بل ان النسوة يتزاحمن فوق أسطح المنازل التى يمر أمامها موكب

(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(★★) التعليقات بآخر الترجمة من وضع المترجم أيضا .

أمير الحج ، لرؤية المنظر البهيج ، وتضع الواحدة منهن أربعة من أصابعها على شفتيها برقة وتزغرد ، وصوت الزغرودة المرحة ، يشبه هذا الصوت : يو .. يو .. يو Yow ... Yow . وهن يكررن هذا الصوت الدال على البهجة مئات المرات .

أما قافلة الحج الثانية فتنطلق من مسير (بكسر الميم وتشديد السين وكسرها) (Misseer or Messe) وهي القاهرة **(المترجم : من الواضح ان المقصود هو مصر ، وقد كتبها بنس وفقا لنطق الحجاج المغاربه الذين صحبهم) (★) .** ويلتحق بهذه القافلة جمع كبير جدا من الحجاج ، لانها افضل تسليحا وبالتالى فان الحجاج الملتحقين بها يكونون فى وضع أكثر أمنا . بالاضافة الى أن هذه القافلة أكثر مدعاة للسرور لأنها منظمة ويعرف كل فرد فيها مكانه ، فليس ثمة عراك أو مشاكل البتة أثناء الطريق لمحاولة فرد أو جماعة احراز السبق أو التقدم . وتحمل هذه القافلة معها كسوة الكعبة (المشرفة) وسأقدم وصفا لبيت الله فى الصفحات التالية .

والقافلة الثالثة تسمى قافلة الشام وتضم الحجاج القادمين من تتاريا وما حولها وتركيا والأناضول وأرض كنعان ، وتصل هذه القافلة للديار المقدسة دون المرور فى مصر .

والقافلة الرابعة هى قافلة الهند (١١) وتنطلق من جزر الهند الشرقية East indies وتحمل معها بضائع قيمة ومختارة يشترى منها الحجاج من مختلف الأجناس فى مكة (المكرمة) .

وتصل هذه القوافل الأربع لمكة (المكرمة) فى وقت واحد تقريبا ، فلا يفصل بين وصولها الا ثلاثة أيام أو أربعة

(★) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

فلابد أن تصل هذه القوافل جميعا قبل عيد القربان أو كما
يقول الترك عيد البيرام (Arabic Quarban and Turkish bairam)
وهو عيد الأضحى ــ بستة أيام أو سبعة ٠

وقد يتساءل بعض من عرفوا مكة (المكرمة) او على الأقل سمعوا بها او قرءوا عنها ــ كيف يمكن لبلدة صغيرة فقيرة أن تستقبل هذه الاعداد الهائله من الحجاج وتقدم لهم ولدوابهم المأوى والاعاشة ؟ وانى اجيبك ان اهل مدة (المكرمة) يخلون أماكنهم للحجاج ، فهذا الموسم بمثابة سوق لهم ، فالمالك يؤجر الغرفة فى هذا الموسم لفترة لا تزيد عن ستة عشر أو سبعة عشر يوما ، بمبلغ يزيد ثلاث مرات عن ايجارها طوال العام ٠ واذا غصت مكة (المكرمة) بحجاجها وأهلها ، نصب الحجاج خيامهم حولها حيث يقيمون الى أن يرحلوا لديارهم ٠ أما بالنسبة للمؤن فالحجاج يجلبون معهم ما يكفى الا اللحوم التى يتحتم عليهم الحصول عليها من مكة (المكرمة) ، أما الزبد والزيت والزيتون والأرز والبقسماط (البسكويت) ٠٠ الخ فالحجاج يحضرون معهم ما يكفيهم لرحلة قدومهم ورحلة عودتهم وفترة اقامتهم بمكة (المكرمة) ، بل انهم يحضرون معهم أعلافا لجمالهم فهم قد لا يجدون الا قليلا جدا من المراعى أثناء الطريق ٠

المنادى للحج فى الجزائر :

وعندما تكون احدى السفن جاهزة للابحار الى الاسكندرية ، ينادى المنادى فى مدينة الجزائر التى أعيش فيها معلنا ميعاد اقلاعها ، وعندئذ ينتهز كل من نوى الحج فى ذلك العام الفرصة ــ بسعادة ــ للسفر بحرا لأنه أقل ارهاقا وتكلفة من السفر برا ٠

ويجب أن تلاحظ أن الأتراك المنخرطين فى الوظائف لا يجرؤون على السفر للحج **دون اذن الداى** Dey (١٢) ،

فاذا تجاوزوا عاما تم تغريمهم عند عودتهم للجزائر راتب عام ، ومنعوا من تقاضى راتبهم بقية العام .

وفى تلك السنة خرجت من الجزائر قاصدا مكة (المكرمة) فوصلنا للاسكندرية فى غضون ثلاثين أو أربعين يوما ، وهى فترة معقولة . وفى رحلتنا لمحنا قاربا صغيرا ذات صباح ، فطاردناه حتى الليل ، وقد رفعنا علمنا (الألوان الفرنسية French Coulours) وقام القارب المطارد بالحذو حذونا ، فلما وصلنا لهذا القارب وجدنا عليه رجالا كلهم أتراك ومغاربة Moors ، تم جلبهم من ملطا بقصد نقلهم الى جنوه (ليجورن Leghorn) وبيعهم هناك . وقد أخبرونا أنهم كانوا قد رسوا فى الصباح الباكر فى مكان معين وذهب معظم الطاقم الفرنسى على الساحل فى قاربهم ولم يتركوا الا رجلين وصبيا ، فهب العبيد وقتلوا الرجلين الفرنسيين . وبذلك أصبحوا (أى الأرقاء) هم سادة السفينة ، لذلك فقد اعتراهم الرعب عندما رفعنا العلم الفرنسى ولما عرفوا أننا أتراك (مسلمون) تحول خوفهم الى فرح . وانتقل بعضهم رجالا ونساء وأطفالا لسفينتنا ، لكننا أقنعناهم بمختلف السبل للعودة لسفينتهم فتوجهوا مباشرة الى تونس ، وسمعنا بعد ذلك أنهم وصلوها آمنين .

الاسكندرية :

وقد مكثنا فى الاسكندرية زهاء عشرين يوما . لقد قدم لنا المؤرخون ـ بلا شك ـ كثيرا من المعلومات عن الاسكندرية ، وسأحاول بدورى تقديم معلومات عنها أرجو أن تكون مقبولة .

لا شك أن الاسكندرية كانت مدينة شهيرة جدا فى أزمنة سابقة لعظمتها وروعتها ، فآثارها القديمة تجعل عقل الانسان يتخيل مدى ما كانت عليه من عظمة . لقد رأيت أثناء تجوالى بها كثيرا من الأعمال المقنطرة (الأروقة المقنطرة)

تحت الأرض ، وتصل للاسكندرية ترعة من النيل (قناة) لتملأ آبارها ، ومن هذه الآبار تتزود الاسكندرية الجديدة — التى تبعد عن الاسكندرية القديمة زهاء ربع ميل — وكذلك كل السفن التى تأوى اليها — بالماء العذب • وفوهات هذه الآبار مشيدة من الرخام •

وأعتقد أن كل أسوار الاسكندرية مازالت قائمة وكذلك بواباتها الحديدية ، باستثناء بعض الأحجار العلوية من الأسوار التى سقطت •

وفى الاسكندرية القديمة مسجدان ، أحدهما يسمى مسجد بن بير ديريك bin-bir direk وهى كلمة تعنى ألف عمود وعمود ، وهو عدد الأعمدة به كما يقولون ، ولما دخلته كان معى اسبانى مرتد Spanish renegado تابع لسيد آخر ، وتركى من جماعتنا • وقد أرانا هذا التركى عمودا حجريا غير صقيل يبدوكجزع شجرة ميتة وبه — أى بالعمود — عقد knots ، وأخبرنا التركى أن هذا العمود كان فى أصله شجرة تين لعنها المسيح (عليه السلام) عندما وجدها لا تثمر وقال : « لا يثمر فى هذا المكان شجر الى الأبد » وأضاف التركى قائلا : « سنعرف ان كنتما مسلمين حقيقيين أم لا • يجب أن تقفا على بعد ثمانى خطوات أو عشر من هذه الشجرة وسأعصب عينيكما بمناديلى ، ولابد أن تتجها الى الشجرة (العمود) دون أن تضلا الطريق ، فان وصلتما للعمود ولمستماه مباشرة فأنتما مسلمان حقا ، وان لم تنجحا فلستما بمسلمين على الحقيقة • وجرب الاسبانى أولا فضل الطريق ، ولما بدأت فى التجربة مددت ذراعى ولمست العمود (الشجرة) بالفعل ، فأعلن التركى أننا (أنا والاسبانى) مسلمان حقا •

وفى خرائب الاسكندرية القديمة أعمدة مختلفة ضخمة جدا وعالية ، وقد عجبت غاية العجب من أحد هذه الأعمدة

فهو مرتفع ارتفاعا شديدا بحيث لا أستطيع أن أقذف بحصاة لتصـل لارتفاعه ، وسـميك حتى ان ثلاثه رجال او اربعة لا يمكنهم تطويقه ، وهو لامع كالزجاج وقريب فى لـونه كثيرا من الرخام السماقى ويبدو كما لو كان من قطعه واحدة مضافا اليها بعض الأشغال الحجـرية فى أعلاه (له تاج من حجر) ومع هذا ، فاننى مقتنع أنه مكون من عدة قطع احسن ربطها بحيث بدا كقطعة واحدة ، والا فكيف حملوه ونصبوه فى مكانه هذا • وهذه المنطقة منخفضة جدا وتستخدم كمقياس بحرى Sea-mark ، لأنه قد أقيم عـلى قطعة أرض مرتفعة قليلا ويمكن رؤيته على مسافة غير قليلة من البر • ويسمى عمود بمباى Pompey's Pillar .

ومدينـة الاسـكندرية الجديدة تطل عـلى البحر ، أما الاسكندرية القديمة فعلى مرمى سهمين من الساحل ، وتتردد سفن كثيرة من مختلف البلاد ـعلى الاسـكندرية وتتزود بما تريده من مؤن لذا ، فليس فى المدينة فائض من المؤن فى أى وقت •

رشـــيد :

وبعد أن قضينا فى الاسـكندرية حـوالى عشرين يوما ركبنا البحر مرة أخرى الى رشيد (Roseet or Rosetta) التى تبعد كما أظن حوالى فرسـخين عن مجـرى النيـل الرئيسى الذى يسمى بحر النيل « Bahr el Nile (bahr al Nil) » .

وأظن أننا قطعنا من الاسكندرية حوالى خمسة فراسخ أو ستة فى اتجاه الشرق قبل أن نصل الى مصب النيل الشهير فى البحر المتوسط ، حيث وجدنا لون الطمى يكاد يصبغ البحر المتوسط كله بلونه ، ويغير طعمه من الملوحة الى العذوبة • ولقد شربت من ماء النيل وأنا على مسافة غير قليلة داخـل البحر المتوسط فلم أجده مالحا البتة ، وقد عجبت لذلك كثيرا وتأكد لدى ما كنت قد سـمعته • وقد أخبرنى ثقـات أن

الجنويين والبنادقة يحصلون فى اغلب الأحيان على الماء العذب من مصب النيل ، وهم يفعلون ذلك دون التعرض لأى خطر فليس لدى الأتراك أساطيل للدفاع عن ساحل مصر .

ولا ترجع شهرة النيل لعمقه فقط وانما لعرضه أيضا ، ولا أستطيع ان أذكر عرضه بالضبط ، لكننى أذكر جيدا اننى لم أكن أستطيع تمييز الرجل من المرأة الا بالكاد من موقعى على أحد شاطئيه — على الشاطىء المقابل ، أما عن عمقه فلابد انه شديد ، لأن سفنا تركية كثيرة يبحر بها يونانيون تعرف بالشيكات Shykes (بالتركية : شيقا Shaiqa بتسكين الياء) وهى تشبه — الى حد ما — سفننا الانجليزية الشراعية المعروفة بالكتشات ketches (المفرد : كتش) ، وحمولة السفينة الواحدة من نوع الشيقا مائتا طن او ثلاثمائة طن ، وتصل هذه السفن الى رشيد ، ومن ثم تنقل البضائع الى بولاق عن طريق سفن او قوارب كبيرة ثقيلة الحمولة وعميقة الغاطس . وفى رشيد يتم تفريغ كل القوارب التى تصل من القاهرة والاسكندرية ، وذلك لان القوارب التى تصل من القاهرة الى رشيد لا تصلح للابحار الى الاسكندرية ، ولا القوارب الكبيرة التى تصل من الاسكندرية الى رشيد بصالحة للابحار الى بولاق ، فهى تحتاج لمياه أكثر عمقا .

عن مصب النيل :

وفى الغالب يكون مصب النيل خطرا جدا ، ممايجعل السفن تبتعد عنه لأن النيل يجرف الرمال للبحر ، مما يجعل السفن تضطر فى بعض الأحيان للانتظار عشرة أيام أو اثنى عشر يوما حتى يطهر المصب من هذه الرمال . واذا لم يتعرض هذا الحاجز الرملى لريح عاتية تواجه سيل الرمال التى يجرفها النهر لمصبه وتشتتها ، لظلت السفن غير قادرة على الاقتراب منه وان كنت أترك الحكم فى هذه المسألة لأشخاص

أكثر علما مني ٠ لكنني اذكر جيدا اننا اضطررنا للانتظار بضعة أيام حتى انجلى مصب النهر ٠ وفي هذه الاثناء سقط رجل عجوز من جماعتنا مريضا وما لبث أن مات ، وفي اليوم التالي ــ ان لم تخنني الذاكرة ــ سمح لنا بالمرور ، فعلق الترك قائلين ان الله أراد أن يدفن هنا ، لذا فقد كنا مضطرين للانتظار أياما عدة ٠

ونهر النيل معروف تماما ومشهور في سائر انحاء العالم ٠ وللنهر مصب اخر يقع الى الشرق من رشيد بعدة فراسخ يسميه اهل البلاد دمياط ٠ وقد كتب بعض الكتاب عن مصبات أخرى متعددة لكن هذا غير صحيح ، وان وجدت فمجرد ترع أو قنوات صغيرة لم أسمع عنها أبدا من أهل البلاد ٠ وانني متأكد أن فرعي النيل : رشيد ودمياط ، يمثلان مصبي النيل الرئيسيين ، وهما الفرعان اللذان يمكن الملاحة فيهما ٠

ووقت فيضان النيل لم أكن في مصر ، بل كنت في مكة المكرمة ٠ لكنهم يقولون ان الفيضان يأتي بالتدريج وعلى مكث ، ولا يروع السكان بل انهم يستقبلونه بفرح غامر ٠ ويغمر ماء النيل الأرض لأربعين يوما ، وعندما ينحسر يقيم الناس الأفراح والليالي الملاح ، فبدون النيل تكون مصر صحراء تماما ، فالصحراء لا تبعد عن القاهرة أكثر من نصف يوم ، ولأن الأمطار لا تسقط على مصر الا قليلا ٠ وبعد أن ينحسر ماء النيل عن الأرض يحين وقت الحرث والبذر واذا وضعت البذور في الأرض ، فلا يأبه المصريون بما اذا سقط المطر أم لا ، وقد لا يصدق كثيرون أن المطر يهطل في مصر أحيانا لأن معظم المؤرخين يقولون عكس ذلك ، ولكنني أؤكد ما رأيته بعيني ٠ فعندما كنت في القاهرة هطل المطر بغزارة شديدة ، وكان لسيدي بالتان (حملان) من الأقمشة الكتانية على متن سفينة في بولاق ، وقد أفسدهما المطر فكنا مضطرين لفتح البالتين وتجفيف الأقمشة قطعة قطعة ٠

النيل ، سمكه وطيوره :

ولدى المصريين مقياس لقياس ارتفاع الفيضان ويقولون ان ماء النيل اذا ارتفع فوق هذا المقياس مقدار اصبع ، دل على وفرة الماء ، وان قصر عن تغطيته دل ذلك على ندرة المياه ·

وفي النهر سمك كثير ، وتسبح فيه الطيور والبط البرى والاوز ·· الخ وقد أخبرنى ثقات بالطريقه الطريقة التى يمسك بها المصريون بهذه البطات البرية ، فالشخص الذى يجيد السباحة والغطس ، يظهر فجأة من تحت الماء ويقبض على رقبة البطة ويسبح بها الى الشاطىء فيمسكها من رجليها ·

وقد رأيت بنفسى أحد الطيور التى تم الامساك بها من فوق صفحة النيل فى ضخامة البلشون (مالك الحزين) ، تحت عنقه ما يشبه الحقيبة الجلدية فوهتها تتجه نحو المنقار ويسمونه سقا كوش Sacca-Cush والسقا هو حمال الماء ، وهذا الطائر يشبه طائر الزقزاق من حيث انه كان يزود ابراهيم الخليل باناء عندما كان يبنى الكعبة (المشرفة) وذلك كما يقولون ، وقد تذكرت قولهم هذا عندما كنت أبحر فى النيل فى اتجاه القاهرة ، فقد صاد أحد رفاقى واحدا من هذه الطيور (طيور السقا) ظنا منه أنه أوزة برية فلما علم حقيقة ما فعله حزن حزنا شديدا حتى انه ذرف الدموع، لأن طائر السقا يجب ألا يتعرض للقتل ·

نهب الحجاج فى النيل :

أما بالنسبة للتماسيح فلم أر أيا منها فى النيل ·

ولا يخلو نهر النيل من اللصوص الذين ينهبون القوارب، وهم يكثرون فى هذا الوقت من العام لكثرة عدد الحجاج الذين يتخذون طريقهم مبحرين فى النيل من رشيد للقاهرة ، ويعلم اللصوص أن الحجاج يحملون معهم مبالغ

مالية ، وقد اعترانا الخوف من مهاجمتهم لنا ، لكننا عندما أطلقنا النار من أسلحتنا ولوا هاربين ٠

وثمة مدن كثيرة على شاطىء النيل فبمجرد أن تنتهى من رؤية مدينة حتى ترى مدينتين أو ثلاثة ٠ ويقولون ان المسافة بين رشيد والقاهرة الشهيرة تزيد على ٣٥٠ ميلا ٠ ونادرا ما يرى المرء على طول الشاطىء تلالا صغيرة لا يزيد ارتفاع الواحد منها عن ارتفاع المنزل ، وينشعب نهر النيل على بعد أربعة أميال أو خمسة الى فرعين : فرع دمياط وفرع رشيد ٠

المصريون : لباسهم وأصولهم :

وسكان مصر خليط من المسلمين Moors والأتراك واليهود واليونانيين والأقباط الذين عرفت مؤخرا انهم جنس المصريين القدماء (**المترجم : اصبح معروفا أنه لم يبق جنس واحد فى العالم لكثرة الاختلاطات والهجرات ، والحروب ، فالدم المصرى القديم اذن مبثوث فى كل الشعب المصرى كما يؤكد بتس نفسه بعد ذلك**) ٠

وتتمثل أهم بضائع ومنتجات مصر فى الأرز والكتان والغلال بمختلف أنواعها والسكر والملابس الكتانية ، كما تتوفر الجلود (خاصة جلود الأبقار) والبلسم balsams ٠٠ الخ، أما بالنسبة للفاكهة فقليلة كالتفاح والكمثرى والكرز ٠٠ الخ وان كانت هناك أنواع متوفرة كالشمام والبطيخ والخيار ٠

ويتوفر فى مصر كثير من بضائع الهند الشرقية كالحرير والموسلين (نوع من القماش) والكاليكو (نوع أيضا من القماش) والبهارات والبن ٠ كما يتوفر فى مصر الحليب والزبد والجبن والزيت والزيتون ٠٠ الخ ٠

ولا يستطيع المرء ان يميز بين المسلمين والأقباط الا من خلال العمائم فقط (★) ، فعمائم المسلمين جميعها بيضاء أما عمائم الاقباط فبيضاء مخططه بخطوط زرقاء ، وجميعهم (مسلمون واقباط) يتحدثون لغة واحدة ، ويلبسون جميعا (مسلمون وأقباط) عباءات سودا واسعات • ويلبس اليهود عباءات من النوع نفسه وان كانت اعرض (اوسع) وغطاء الرأس اليهودى ذو شكل شاذ ، ويشبه الى حد ما مؤخرة القبعه ومغطى بقماش عريض • وبالنسبة للمراة اليهودية فانها تضع على رأسها غطاء طويلا يشبه القبعات المتوجة التى ترتديها نساؤنا (فى بريطانيا) لكنها ليست مستدقة الطرف جدا عند قمتها ، كما أنها أطول ولها نتوء عند القذال (مؤخرة الرأس) ، ويبدو منظرها فى الغاية من السماجة حقا • أما اليونانيون فلا يختلفون في لباسهم الا قليلا عن الأتراك الا في العائم والقبعات • ولا يجرؤ اليونانيون على لبس أى لباس ذى لون أخضر وان تجاسروا على ذلك مزق العامة ملابسهم أو على الأقل مزقوا الجزء الأخضر منها ، هذا اذا لم يتعرضوا للضرب بالفلكة (بالفلقة) • ورغم أن كل المسلمين ، سواء من الأتراك أو من أهل البلاد ، Moors لهم مطلق الحرية في ارتداء الملابس الخضراء ، الا أن العادة جرت ألا يلبس أحد منهم عمامة خضراء الا اذا كان من سلالة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فهؤلاء يتمتعون باحترام أكثر من غيرهم •

البغاء وبنات الهوى (★★) :

من الصعب أن أقدم بيانا كاملا بوقائع الفجور والانحلال، لكننى لا أستطيع أن أتجاهل الحديث فى هذا الموضوع آملا

(★) هذا يؤكد ما ذكرناه فى تعليقنا آنفا ، فليست هناك فروق فيزيقية بين مجموعات بعينها — (المترجم) •

(★★) لم يكن من الغريب وجود هذه الظاهرة بتلك الصورة السافرة ، اذ كان المماليك — وهم الحكام الحقيقيون لمصر فى ظل الدولة العثمانية — يعتبرون هؤلاء البغايا موردا ماليا لايستهان به . وبعد تولى محمد على حكم مصر تعهد الاشراف والتجار =

ان يكون في حديثي هذا ما يدفع اهل بلدى (انجلترا) للاحتراس من هذا الوباء (البغاء) وان نسن التشريعات التى تحمل العقاب الفعال لهذا الفعل ، ونطلب من الله (عز وجل) ان يبارك جهودنا لقمع هذه الخطيئة التى تحطم الارواح ٠ وفى مصر (فى الفترة التى زرتها)(★) هناك شوارع معينة ومواضع خاصة غاصة ببيوت الدعارة (١٣) ٠ وقد تعودت الداعرات أن يجلسن عند أبواب بيوت الدعارة ، أو أن يتجولن سافرات فى الشوارع وقد ارتدين أفخر ثيابهن ، وبعضهن كن يلبسن قمصانا داخلية وسراويل حريرية وعباءات — كعباءات الرجال — من حرير ، ويعقدن حول خصورهن أحزمة حريرية (والجميع هنا رجالا ونساء وأطفالا يلبسون أحزمة حول خصورهم) ويضعن خناجر فى أحزمتهن وأغمدة الخناجر غالبا ما تكون من فضة ٠ وتضع كل واحدة من هؤلاء الداعرات (نساء الهوى) فوق رأسها غطاء رأس من قطيفة مزينا باللآلىء الثمينة وغير ذلك من الحلى اللامعة ، وتغطى النسوة الآخريات غير الداعرات رءوسهن على الشاكلة نفسها ٠ وتضفر الداعرات شعورهن فى ضفائر طويلة تصل الى أعقاب أقدامهن ، وقد علقن فى أطراف ضفائرهن أجراسا صغيرة أو أشياء شبيهة تحدث أصواتا عند ارتطامها بأعقابهم أثناء سيرهن ٠ ويضفن فى أنوفهن الجواهر وغير ذلك من أساليب التبرج ، وقد نهى النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) عن كل ذلك ٠ وهؤلاء السيدات يسرن فى الشوارع حاملات بيباتهن (جمع بيبة Pipe) التى يبلغ طول الواحدة منها أربعة أقدام أو خمسة ويدخن ، واذا جلسن أمام بيوتهن عملن على الايقاع بالرجال العابرين وادخالهم لهذه

= بدفع الأموال التى كانت تجبى من هؤلاء البغايا اذا منعهن الوالى من الفاحشة ، فأمر الوالى باقصائهن الى مدينة فى أقصى الصعيد ، ثم عاد الأم الى ما كان عليه فى ظل الحكومات الأجنبية حتى كانت ثورة ٢٣ يوليو التى جرمت ممارسة الدعارة ٠

(★) ما بين القوسين اضافة من المترجم ٠

البيوت · وكنت ــ في غالب الأحيان ــ مندهشا ــ لأن هذه المخلوقات (النسوة الداعرات) كن قادرات على السيطرة على مشاعرهن ، فمقابل ثلاث بارات Parrah أو أربع يمكن لأى رجل أن يقضى شهوته الجنسية معهن ، لكنهن ماكرات جدا فان أية واحدة منهن لا تشجع الرجل الذى يضاجعها للبقاء معها أكثر من الوقت المحدد له ، والذى يتناسب مع المبلغ الذى دفعه ، وذلك حتى لا يضعن على أنفسهن فرصة استقبال رجل (زبون) جديد ·

وعلى الان ان ازيد القراء تفصيلا عن القاهرة العظيمة ذات الشهرة التاريخية ، ففى معظم مساجدها توجد ابار تزودها بالمياه قنوات تحول اليها (الى الآبار) زمن الفيضان ، وثمة رجال معينون يجلسون عند نوافذ المساجد لتقديم الماء لكل عابر · واذا لم أكن مخطئا ففى القاهرة خمسة آلاف أو ستة آلاف مسجد بناها الأفراد أو السلطات · وبعض هذه المساجد ضخم جدا ومتين جدا وله واجهات منمقة وبوابات فخمة ، ومآذن أسطوانية أو أبراج عظيمة ، ولبعض هذه المآذن شرفات حول أسطوانة المئذنة ، وقد يكون للمئذنة شرفتان أو ثلاث · وتزين هذه الشرفات ــ وكذلك المآذن ــ فى شهر رمضان بمصابيح كثيرة مبهرة فى جمالها ·

وقبل أن نصل للقاهرة بأميال كثيرة ظهر لنا الهرمان وهما خلف القاهرة بحوالى ستة أميال أو سبعة · لقد كان ارتفاعهما مذهلا ، ويتخذ كل واحد منهما شكل قمع السكر ·

وثمة مدينة على شاطىء نهر النيل على بعد ميل ونصف ميل قبل وصولنا للقاهرة ، وهى مدينة بولاق التى ترسو بها مئات من السفن المحملة بالقمح وغير ذلك · وقد استأجرنا فى بولاق حميرا أو جمالا لحمل أمتعتنا للقاهرة ، التى تعد مستودعا للغرباء والتجار مما أعطى لهذه المدينة (القاهرة) شهرتها التاريخية ، وكل ما أعدته القاهرة لاستقبال ضيوفها

هــو غرف عارية ليس بهـا اقل انــواع الأثاث أو بها أدنى أنواعه ، ومع هذا فان على كل غريب ســواء أكان حاجا أم تاجرا اذا أراد استئجار غرفة أن يدفع خمســين بارا عنــد دخول الغرفة بالاضافة الى بارا واحدة كل أسبوع ، وليقم بعد ذلك ما شاء له أن يقيم ٠

واللغات المستخدمة في القاهرة ـ كما قيل ـ لا تقل عن اثنتين وسبعين لغة ٠

وفيما يتعلق بالمبـانى هنـا فهى مع اسـتثناءات قليلة منخفضة فيما عدا بعض الخانات hawns اذ يبلغ ارتفـاع بعضها ثلاثة طوابق ٠ وقد شيدت الخانات على نسق المساكن : أربعة أروقة يتوسـطها حوش (صـحن) ، وبعض الآروقة واسعة جـدا لدرجة أن الرواق الواحـد منهـا يضـم ثلاث مجموعات أو أربع مجموعات من غرف لا حصر لهـا ٠ وفى القاهرة بضع مئات من هذه الخـانات يوجـد فى أحواشـها (صحونها) مساجد صغيرة حتى يؤدى فيها الراغبون صلاتى المغرب والعشاء ، لأنه من الخطورة بمكان السير فى الشوارع بعد ايقاد الشموع (بعد حلول الليل) ، فاذا أقبل الليل تم اغلاق بوابة الخان ٠ والآن وقد رأينا أن الخانات والمساكن الواسعة يتمتع قاطنوها بالأحواش أو الصحون (جمع حوش وصحن) الواسعة فقد تظن أن القاهرة كلها على هذه الشاكلة، لكن الواقع أن شوارعها ضيقة جدا لا تتلاءم مع ازدحامهـا بالسكان ، ففى حالات كثيرة يزدحم النـاس فى الشـوارع ازدحاما شديدا وأحيانا يفقـد بعضهم شـباشبهم أو بلغهم (جمع بلغة بضم الباء وتسـكين اللام) فتنزع من أرجلهم بسبب الزحام ٠

ويركب الناس هنـا الحمير عادة عنـدما يذهبون لمكان لا يبعد أكثر من ميل أو ميلين ٠ ويتم طلب الحمار على النحو نفسه الذى يطلب الناس به العربة فى لندن ، وتركب النسوة

الحمير مباعدات ما بين آفخاذهن كالرجال ، وخطوات هـذه الحمير آوسع وآسرع من خطوات الخيول ، ويمكنك آن تركب الحمار مسافة ميل مقابل دفع بارا واحدة • ويقود صاحب الحمار (الحمار : بتشديد الميم) حماره ، ويصيح الحمارة فى كل مكان طالبين من المـارة افسـاح الطـريق خـوفا من وقوع حوادث تصادم عند المواجهة المفـاجئة بين الحمير والمارة أو عند الاستدارة ، لذا فطوال النهار يسـمع المرء جلبة شديدة بسبب هؤلاء الحمارة الذين يصيحون باستمرار : وشك (وجهك) ! ، ظهرك !، شمالك ! يمينك ! •

ويرشون الشوارع بالماء ــ عادة ــ مرتين بالنهار بسبب الحرارة المتزايدة • وهناك كثيرون يتكسبون بحمل الماء فى قرب من جلود الماعز ، ويحمل كل واحد من هؤلاء السـقائين آنيتين نحاسيتين أو ثلاثا لتقديم ماء الشرب للعابرين ويقدم لهم بعض الشاربين مبلغا يسيرا half a farthing .

الأسعار :

أما ما يتعلق بالوفرة هنـا فهى تدعو للعجب ، فيـمكن شراء عشرين بيضـة بل خمس وعشرين ببارا واحـدة ، ويمكنك أيضا الحصول على أربع عشرة أو ستة عشرة كعكة أو رغيفا (فى حجم قريب من حجم أرغفتنـا التى يبـاع الواحد منها بنصف بنس) ببارا واحدة ، وكل المؤن هنـا رخيصة الثمن اذا قارنا أسـعارها هنـا بأسعارها فى بلاد أخـرى •

والماء الذى يتعاطونه هنا مائل للملوحة كثيرا، ويتعيش كثيرون هنا على جلب الماء على الجمال من نهر النيل ، وعادة ما يسبب هذا الماء الاسهال للغرباء فى بداية الأمر •

الـوقود :

وثمة شح كبير هنا فى أخشاب الوقود لذا ، فهم يستخدمون فى أفرانهم ــ بشكل عام ــ روث الخيل والأبقار (الجلة :

بكسر الجيم وتشديد اللام) او قمامة الشوارع ، والأخشاب التى يستخدمونها مجلوبة من بعض المناطق المحيطة بالبحر الأسود وتباع بالوزن ، كما يباع فحم البحر Sea-Coal عندنا بالمكيال ٠

وتدخل القاهرة يوميا قطعان كثيرة من الماعز ، فاذا أراد أحدهم شراء حليب ، قام صاحب القطيع بالحلب أمامه حتى يتأكد المشترى أنه يشترى حليبا طازجا وجيدا ٠ حقيقة ان كل الضروريات تصل اليهم حتى أبوابهم ليشتروا منها ما شاءوا فيما عدا اللحوم ٠

تفقيس الكتاكيت :

وللمصريين طريقة طريفة فى تفقيس الكتاكيت ، وقد يظن بعض من يقرأ كلامى هذا أننى أروى خرافة . لكننى أؤكد أننى رأيت ذلك بنفسى وأن ما أرويه حقيقى ، فلدى المصرى مكان محفور تحت الأرض لا يبعد فى شكله عن الفرن وقد فرش قاعه بالقش ويضع فيه بضعة آلاف من البيض متراكمة بعضها الى جوار بعضها الآخر وفوق بعضها، ويتركها لتفقس بفعل حرارة الشمس دون الاستعانة بدفء دجاجات أو أى دفء من كائن منتج آخر، فاذا ما فقس البيض وظهرت الكتاكيت يبيعونها للفقراء بالكيل by the measure ، فاذا ما كبرت وسمنت بيعت الدجاجة أو الديك بما لا يزيد عن ثلاث بارات للواحدة ٠ وعندما كنت أبحر صاعدا فى النيل كان لدى من حب الاستطلاع ما يجعلنى أمشى على الشاطىء عندما تمنع الريح المعاكسة السفينة من التقدم فيربطونها بحبل الى الشاطىء ــ وقد رأيت ذات مرة أحد أماكن تفقيس البيض هذه بينما كنت أمشى ٠

سوق الجوارى :

وفى القاهرة سوق خاصة تعقد مرتين فى الاسبوع ، لبيع الأرقاء المسيحيين الذين جلبهم تجار الرقيق من تركيا والذين

اقتنصهم التتر Tartars في معظم الحالات • ومعظمهم من الجوارى (النساء) والأطفال ، لأن الرجال منهم يحجزون غالبا فى تركيا للخدمة فى السفن • ومعظم هــؤلاء الرقيق البيض المجلــوبين هنـــا للبيـــع موســـكوفيون Muscovites وروس وبعضهم من الامبراطورية الألمانية ، وعنـــد عرض الرقيق (النساء والأطفال) للبيع يبـــدون فى أبهى زينـــة وفى ملابس جميلة ، حتى يحصل التاجر من جراء بيعهم عـــلى مبالغ كبيرة • والصبية الذين حلقت شعور رءوسهم توضـــع خصلة شعر تحت رءوسهم وأخرى تتدلى على وجناتهم ، وذلك عند وقوفهم للعرض فى السوق ، دلالة على أنهم ما زالوا على المسيحية ، وانه قد تم اقتناصهم حديثا • ورغم أن النســـوة (الثيبات) والعذارى محجبـــات ، الا أن للتـــاجر الحق فى النظر الى وجوههن ، وأن يضع يده فى أفواههن للتأكد من سلامة أسنانهن ، وله الحق أن يمســـك بنهـــودهن يتحسسها كيف شاء ، واكثر من هذا ، فان له ـ كما أخبرونى ـ الحق أحيانا فى أن يعرف بطريقة غير موغلة فى التطرف ما اذا كانت الجارية عذراء أو لا !! •

وقد أكد لى بعض الأشخاص أن الرقيق المباع فى هذه البلاد لا يجبر أبدا على التحول للاسلام • وفى الجـــزائر ، أعترف أن اجبار الرقيق على التحـــول للاســـلام ليس أمرا شائعا ، رغم أننى ـ علم الله ـ (قد عانيت بما فيه الكفاية منهم) لـــكن فى مصر وتركيـــا ـ دعنى أؤكد ـ أن الأمر يختلف •

فالجوارى والعبيد الذين هم فى مرحلة الشباب يلحقون مباشرة بالمدارس لتعلم القراءة والكتابة فهم مخلوقات جاهلة بائسة ، وحقيقة فانهم بعد تحولهم للاسلام • تسير أمورهم فى هذه الأنحاء على نحو أفضـــل ، وقد يتفـــوقون كأبنـــاء سادتهم ان كانوا أذكياء • ويقال ان هؤلاء المتحولين للاسلام renegadoes يلقون حظـــوة أكثر من الأتراك الأصـــلاء

(اكثر من المسلمين بالميلاد) فهم يشغلون الوظائف العليا ويتمتعون بنفوذ واسع • واولاد هؤلاء الترك (المسلمين) الذين يتزوجون هنا في مصر نادرا ما يعيشون في نطاق نفس الطبقة الاجتماعية ، وانما يعيشون كما يعيش أهل البلاد ، فأولاد الذين تحولوا للاسلام يشغلون مرتبة أدنى من المرتبة التي يشغلها آباؤهم ، ويفخر العبيد والجوارى الذين بيعوا هنا أن يوسف (عليه السلام) قد تم بيعه في مصر •

ويجب أن تعلم أنه لا يوجد أتراك هنا ، فكل من يصل من تركيا عسكر انكشارية . Yeanesherres or Janizaries

وأهل مصر — خاصة أهل القاهرة — يتسمون بالفظاظة والانفعال ، وهم ذوو لسان سليط كالداعرات ، لكنهم قلما يهتمون بالدخول في معارك ، وان حدث فانهم يضربون بأكفهم (يصفعون) وليس بقبضاتهم • وهم بارعون في الاحتيال والغش ، خاصة مع الغرباء الذين لا يعرفون عملتهم ولا يعرفون أساليبهم في البيع والشراء • فعندما يضع المشترى بارا في يد البائع ، فان البائع يضعها (أى البارا) — ان أمكنه — في فمه ، ثم يتناول بمكر بارا أخرى (غير جيدة) كان قد وضعها في فمه أيضا لتحقيق هدفه ، ثم يقدم هذه البارا الأخرى (غير الجيدة) للمشترى قائلا ان بارته مغشوشة (مقصوصة Maqsus) ، وبعد أن عرفت هذه الخدعة لم أعد أسمح لأحد بوضع بارتى في فمه •

وهم يسيئون معاملة الغرباء فمن الخطورة أن يسير الغريب في الشوارع بعد ايقاد الشموع ، بل لقد علمت أنهم ينقضون على الغريب في رائعة النهار ويسلبونه ويضربونه ضربا مبرحا قد يفقده حياته ، وكان ثمة رجل عجوز ، كان جارا لنا في الجزائر وكان يقيم معنا في الخان نفسه — تعرض لاعتداء بعض الأوغاد بينما كان يسير في أحد الشوارع الجانبية ، ولم تتحسن حالته بعد ذلك أبدا ، ومات بعد ذلك في غضون أسابيع قليلة •

عقاب الغش التجارى :

ومع أن أهل القاهرة مولعون بغش الغرباء وخداعهم ، فانهم يعاقبون بصرامة من يطفف الكيل والميزان ، فالخبز يتم فحصه ، فاذا ما ثبت أن وزنه أقل من الوزن القانونى تم سحبه – أى الخبز – وتوزيعه على الفقراء ومعاقبة الخباز بضربه بالفلكة (الفلقة) على قدميه العاريتين بشدة ، وقد رأيت ذلك مرات عديدة · لذا ، فان بعض الخبازين يتركون خبزهم ان كانوا يعلمون أن وزنه أقل من الوزن القانونى ، ويجرون هاربين لتجنب العقاب البدنى ·

وتزخر مصر بالجاموس ، والجاموسة أضخم من الثور عندنا وجميعها سوداء لكن شعرها غزير ، وأنف الجاموسة ممتد للأمام أما قرناها فيتجهان ناحية الظهر ·

ولست فى حاجة للحديث عن وفرة الأرز هنا فهى أهم بلاد العالم انتاجا له كما هو معروف ، ولم أر فى حياتى أبدا مثل جموع المتسولين هنا ، فمن المألوف أن ترى عشرة متسولين أو اثنى عشر أو أكثر ، متجمعين معا فى مساء يوم الخميس وهو اليوم السابق ليوم سبتهم (يوم عبادتهم : والمقصود يوم الجمعة حيث الصلاة الجامعة الأسبوعية) ، فهذا هو يوم الاحسان ·

والناس هنا ذوو عيون متقرحة وسيقان متورمة، وبعض الفئات كالحمالين تنتفخ أجزاء أخرى من أبدانهم نتيجة حملهم أحمالا ثقيلة جدا · والحمالون عموما أقوياء جدا اذ يحمل الواحد منهم ما زنته ثلاثمئة وزنة weight أو أكثر دفعة واحدة فوق ظهره ، وأكثر من هذا فاذا لم أكن مخطئا ، فان الواحد منهم فى استطاعته حمل ما زنته خمسمائة وزنة ·

ويقول أهل القاهرة : ان الله يحب مدينتهم ويرعاها بناظريه سبع مرات فى اليوم ليحفظها من كل سوء ·

الطواشية (الخصيان) :

وفي بيوت معظم أسر الطبقات العليا في مصر ، طواشية (خصيان) مؤتمنون على الزوجات ويصحبونهن أينما ذهبن سواء للحمامات العامة أو الى أى مكان آخر • ويثق سادة هؤلاء الطواشية — حقا — فيهم ثقة كاملة ، ويحترمونهم بل ويدعونهم بألقاب السادة ، ويرجع ذلك لرغبتهم في أن يكونوا صادقين مؤتمنين على زوجاتهم • وثمن الطواشي مرتفع لأنهم يكونون شبابا عند خصيهم ولا يبقى منهم على قيد الحياة بعد الخصى الا عدد قليل • وعادة ما ينمو جسم الطواشي نموا هائلا ، وتكون أصواتهم أنثوية ، كما يكونون مردا لا ينمو الشعر في وجوههم •

بئر يوسف :

وفي القاهرة بئر (بئر يوسف) عميقة عمقا غير عادى وفوهتها حوالى عشرين قدما مربعا ، وثمة ممر للهبوط الى منتصفها يتخذ شكلا دائريا حول جدارها الداخلى ، ويزود بالاضاءة من فوهة البئر ، واذا لم أكن مخطئا فهناك حوالى ثلاثمائة درجة من درجات السلم عريضة وتستمر حتى منتصف البئر ، حيث يوجد نتوء دائرى توجد عليه ثيران لسحب الماء من قاع البئر ، وثمة خزان كبير يفرغ فيه الماء المسحوب ، حيث يتم سحبه بواسطة ثور آخر الى السطح ، بالطريقة ذاتها التى قام بها الثور الأول • وطريقة سحب الماء بواسطة هذه الثيران كالتالى : توجد عجلة تشبه الى حد ما عجلة الطاحونة ، ويخرج من العجلة حبلان يبعد كل حبل عن الآخر أربعة أقدام ، وعندما يدور الثور حول العجلة تدور العجلة فترجع الجرار ممتلئة بالماء فتصب في الخزان ، ثم تهبط الجرار مرة أخرى بفعل دوران العجلة وهى فارغة وفوهاتها الى أسفل حتى تصل للماء فتمتلىء مرة أخرى • وبهذه الوسيلة يستخرجون الماء لاستخدامه في حماماتهم

ولرى حدائقهم ٠٠ الخ ٠ ولم أذكر هـذه البئر لأهميتها السابقة فحسب ، وانما أيضا لأنهم يؤكدون أنها البئر التى سجن فيها سيدنا يوسف (نبى الله) على يد بوتيفار Potiphar .

وأخشى أن أكون قد أطلت على القارىء قبل أن أحدثه عن مكة (المكرمة) لكننى أستأذنه فى أن يصبر قليلا ٠

السـويس :

ففى طريقنا من القاهرة الى مكة (المكرمة) وعند طرف البحر الأحمر وصلنا لمدينة السويس التى تبعد عن القاهرة زهاء يوم ، ولها ميناء ترسو به السفن المتجهة للديار المقدسة ، والسفن هنا غريبة مميزة ، فليس لها سطح ... وهى عميقة الغاطس وتملأ بالمؤن المتجهة لمكة (المكرمة) ٠ ولما علمنا ونحن فى القاهرة أن هـذه السفن (الموجودة فى ميناء السويس) جاهزة للاقلاع زودنا أنفسنا بمؤن تكفينا أربعة أشهر ، لتكفينا أيضا فى رحلة عودتنا للقاهرة ثم استأجرنا جمالا لتنقلنا للسويس ٠

وفى السويس دفعنا حوالى ستة بنسات (جروت Groat) لقاء الماء العذب ، وقد رأيت هنا عددا كبيرا من المدافع الضخمة النحاسية الجيدة وقد موهت (أخفيت) بالقرب من ساحل البحر ، لكنى نسيت أن أستفسر عن طريقة احضارها الى هنا ، وعن هدف وجودها ٠

الطـور :

وبعد أن أبحرنا يومين أو ثلاثة من السويس رست سفينتنا فى الطور (Tor or Eltor) وهى مدينة صغيرة جدا ذات ميناء حيث أنعشنا أنفسنا بالماء ، ذلك أن كل مسافر يتحمل مسئولية حصوله على مائه ٠ وقد حصلنا هنا على كثير من المشمش وغيره من الفواكه التى جلبت من جبل سيناء

الذى يسمونه جبل الطور او طور دوج Toor Dog وهو جبس الشريعة وأظنه على بعد خمسة اميال أو ستة من الساحل ، وللكاثوليك ــ كما اخبرونى ــ دير فوق الجبل ويدفع هؤلاء الكاثوليك للاتراك مبلغا كبيرا لقاء ذلك ، ويتردد كثير من الكاثوليك على هذا الدير للزيارة ·

بئر فرعون :

وبعد أن أبحرنا قليــلا من الطور أردنا الموضــع الذى عبر منه بنو اسرائيل البحر الأحمر ويسمونه بئر فرعون ، ويعنى المكان الذى غرق فيه فرعون ومن معه بعد عبور بنى اسرائيل · ويقولون انه مكان خطر جــدا حتى اذا لم تهب عواصف هوجاء ، وذلك لوجود نوع من الدوامات البحــرية تبتلع السفن ·

وأظن أن عرض البحر الأحمر فى هــذا الموضــع الذى يقال ان بنى اسرائيل عبروه ، حوالى ستة فراسخ أو سبعة ·

الابحار فى البحر الأحمر :

والابحار فى البحر الأحمر غير آمن ليلا ، الا فى موضع واحد لا يستغرق أكثر من ليلتين ، وذلك بسبب كثرةالصخور التى ما نكاد ننتهى من رؤية بعضها حتى نرى بعضها الآخــر (ولم ألحظ أن الخرائط تقدم معلومات عنها) وأحيانا تكون قريبة من السطح حتى يمكنك القاء حصاة عليها ، وبعض هذه الصخور أضخم من غــيرها ، وبعضها يبــدو كجــزيرة وبعضها يبرز بالفعل فوق سطح الماء وبعضها تحت سطح الماء بقليل ، لذا فقد كنا نرسو كل مساء باتجاه الريح لصخرة أو أخــرى ·

والبحر الأحمر ضيق حول الســويس (يقصــد خليج

السويس) ولما أبحرنا للطور كانت الصحراء قريبة عن يسارنا ، ولم نر أى ساحل عن يميننا •

ويعتقد أن ماء البحر الأحمر فى هذه المنطقة أشد ملوحة منه فى أى مكان آخر •

المرابط :

لقد مكثنا مبحرين فى هذا البحر زهاء شهر ، وكنا قد أبحرنا من السويس حوالى عشرين يوما فوصلنا لموضع دفن (مقام) المرابط morrabot (١٤) ويعنى المجاهد فى سبيل الله ، وربما كان مدفونا هنا منذ مئات السنين ، ولما وصلنا لموضع دفنه (فى هذه الجزيرة) صنع واحد من طاقم سفينتنا سفينة صغيرة يبلغ طولها قدمين ، وراح يمر على كل الحجاج طالبا منهم أن يضعوا الصدقات والهبات فيها على شرف المرابط آنف الذكر ، وكانوا يضعون بكامل حريتهم بعض قطع العملة ، ثم أخذوا شموعا صغيرة وزجاجة زيت صغيرة ووضعوها فى هذه السفينة الصغيرة مع المال المجموع، ويقولون انهم يتركون كل ذلك على شرف المرابط ، وان كنت أعتقد أنهم يأخذونه كله أو معظمه لأنفسهم ، وبعد ذلك رفع الجميع أيديهم طالبين البركة من هذا الشيخ المرابط (★) ، ودعوا أن تكون رحلتهم سهلة ، ثم وضعوا السفينة الصغيرة بما عليها من مال وزيت فى البحر وليس لديهم أدنى شك أنها ستصل للشيخ المرابط فى ضريحه •• يا لهم من بؤساء جهلة ! وهذا المرابط ــ كما يقال ــ مات وهو فى الطريق الى مكة (المكرمة) وظلت ذكراه تحظى بالاحترام والتبجيل • ويحترم المسلمون هؤلاء « المرابطين » احتراما عظيما فاذا استطاع أحد القتلة أن يهرب الى مقام (قبر) واحد منهم ، فانه يصبح آمنا كما لو كان فى دير ، فلن يستطيع أحد أن يمسه بسوء فى هذا المكان •

(★) من المفهوم أن المثقفين المسلمين لا يتضرعون لغير الله سبحانه ــ (**المترجم**) •

رابـغ :

وبعد ذلك ببضعة أيام وصلنا الى رابغ ولبس كل الحجاج ــ فيما عدا النساء ــ ملابس الاحرام • لقد خلعوا ملابسهم المعتادة ولبس كل واحـد منهم قطعتين من القماش القطنى الأبيض • احدى القطعتين تلف حول الوسط وتغطى الجزء السفلى حتى الأعقاب ، والقطعة الثانية تغطى الجزء العلوى من الجسم عدا الرأس ، ويلبس الحاج فى قدمه خفـا غـير مخيط Jamjamiya ، ولا يغطى الجزء العلوى من القدم عدا الأصابع ، وعلى هذا النحو يظلون حتى يصلوا الى مكة (المكرمة) ، وتؤثر الحـرارة تأثيرا شـديدا فى ظهـورهم وأذرعهم ورءوسـهم • وحتى لو تعرض أحـدهم للتلف فان الشريعة لا تسمح له بأن يضع فوق رأسـه غطاء ، أو فوق بدنه لباسا آخر غير ملابس الاحرام حتى يتحلل من احرامه بعد ذبح أضحيته وتقديمها للفقراء • وطـوال فترة لبس الاحرام التى تستغرق سبعة أيام يحرم عليهم قص أظافرهم أو قتل قملة أو برغوث ، ففى هذا ــ كما يظنون ــ سـفك للدماء ، بل انهم يجدون حرجا فى نقل البرغوث أو القملة من موضع فى الجسد الى موضع آخر • وأثنـاء لبس ملابس الاحـرام لا يفسـقون ولا يفجرون ، ويضبطون ألسـنتهم ولا يستخدمون الا التعبيرات المهذبة وهم لا يحلقون شعورهم فى هذه الفترة أيضا •

جـــده :

ثم وصلنا الى جده وهى أقرب الموانىء الى مكة (المكرمة) التى لا تبعد عنها أكثر من يوم • وفى جده تفرغ السـفن حمولاتها (١٥) ، وقد قابلنا الأدلاء dilleels القادمين من مكة (المكرمة) ليدلونا على كيفية أداء مناسك الحج ، وكان معظم الحجاج جاهلين بها ، وليصحبونا عند بيت الله (الكعبة المشرفة) التى يقال ان ابراهيم الخليل قد بناها •

مكة (المكرمة) :

وبمجرد وصولنا الى مكة (المكرمة) سار بنا الدليل فى شارع واسع يتوسط البلدة (مكة) ويؤدى الى الحرم ، وبعد أن أنخنا الجمال ، وجهنا الدليل الى حوض المـاء للوضـوء abdes ومن ثم ذهب بنا للحرم فدخلناه من باب السـلام (وقد تركنا أحذيتنا عند شخص موكل بها قبل الدخول) ، وبعد اجتيازنا مدخلا استغرق اجتيازه خطـوات قليلة وقف الدليل (المطوف) ورفع يديه صوب بيت الله الواقع وسط المسجد الحرام وحذا الحجاج حذوه ورددوا وراءه الكلمات التى يقولها · **وعندما وقع نظر الحجـاج للمرة الاولى عـلى الكعبـة (المشرفة) فاضت عيـونهم بالدمـوع ثم طفنـا** بالكعبة (المشرفة) سبعة أشـواط ، ثم صـلينا ركعتين ثم قادنا الدليل (المطوف) للطريق مرة أخرى ورحنا نهرول وراءه تارة ونمشى تارة أخرى من أحد طرفى الطريق الى طرفه الآخر (يقصد السعى بين الصفا والمروة) · ولا أملك الا أن أعجب من الكائنات البائسة (يقصد الحجاج) الذين يبدو عليهم التأثر الشديد والعاطفة الجياشـة وهم يؤدون هذه المناسك ·· (وصف بيتس هذه المناسك بالخرافات) ولم أستطع الا بالكاد أن أكبح دموعى من الانهمار عند رؤية حماسـهم ·· (وصـف بيتس حماسهم بأنه حمـاس أعمى ووثنى (blind and idolatrous) وبعد أن أتممنا السعى عدنا لمكان اناخة دوابنا ومعها المؤن والضروريات ، وبحثنـا عن سكن ولما تيسر لنا خلعنا ملابس الاحرام ولبسـنا المـلابس المعتادة مرة أخرى ·

وقد عمل كل الحجاج على استغلال كل وقتهـم فى مكة المكرمة فى العبادة ، فلم يكتفوا بالواجبات المفروضة ، وانما راحوا يقضون كل وقت فراغهم فى الحرم يطـوفون حـول الكعبة التى تبلغ حوالى أربع وعشرين خطوة مربعة (؟) وقد تم تثبيت حجر أسود فى أحد أركان بيت الله وهـو مطـوق

بسياج فضى ، وفى كل وقت يتقدم الحجاج نحو هـذا الحجر ويقبلونه ثم يطوفون سـبعة أشـواط ، ويصلون ركعتين ، ويقولون ان هذا الحجر كان يسمى الحجـر الأسـعد ويعنى الحجر الأبيض (؟) ولكنـــه اسـود من خطايا البشر الذين يقبلونه فسمى بالحجر الأسود • ولا يخلو المطاف من الطائفين حول الكعبة ليلا أو نهارا •

وهناك من ينتظر عدة أسابيع ، بل عدة شهور ، لتتاح له فرصة الطواف، لأنهم يقولون ان أى شخص يحظى بفرصة الطواف ، ودعا الله فان دعوته تستجاب ، وكثيرون هم الذين يظلون يطوفون حتى يعتريهم التعب مع ملاحظة أنهم يصلون ركعتين عقب كل سبعة أشواط • والكعبة هى مقصد عبادة المسلمين ووثنهم idol الذى يعبدونه **(المترجم : المسلمون كما يعلم الجميع حتى من غير المسلمين لا يعبدون الكعبة ، وانما يعبدون الله الواحـد القهـار الذى لا تأخـذه سـنة ولا نوم • وهناك رحالة آخر شهير هو بيرتون الذى زار مكة المكرمة فى بداية النصف الثانى من القرن التاسـع عشر ، وكان بيرتون أكثر نضوجا وفهما فذكر أن أبسط بدوى يعلم تماما أنه يطوف حول الكعبـة تأسيا بابراهيم الخليـل وأنه لا يعبد الكعبة ، وذكر بيرتون أن العقائد الاسلامية المرتبطة بالكعبة أبعد ما تكون عن الوثنية ، أما الرحالة بوركهارت الذى زار مكة المكرمة فى مطلع القرن التاسع عشر فكرر فى صفحات رحلته أن المسلمين يعبدون الله سبحانه وتعالى وأنهم موحدون من الطراز الأول ،بل ان الرحالة المتعصب فارتيما الذى زار مكة المكرمة فى مطلع القرن السادس عشر لم يشر من قريب أو بعيد أن المسلمين يعبدون الكعبة ، وهكذا يتضح أن جوزيف بتس الشاب الذى لا يتجاوز السادسـة عشرة من عمره قد أساء الفهم)** • فالمسلمون مهما بعد بهم المكان عن مكة (المكرمة) شمالا أو جنوبا أو شرقا أو غربا لابد أن يوجهوا وجوههم شطر الكعبة ، أما عندما يكونون عندها (أى عنـد

الكعبة أو بيت الله) فيمكنهم التوجه نحو اية جهة من الجهات الأصلية أو غير الأصلية طالما أن الكعبة أمامهم · وفى بعض الأحيان يكون الطائفون حول الكعبة عدة مئات فى وقت واحد ، خاصة بعد صلاة العشاء Acsham Namas أى بعد ايقاد الشموع ، ويكون الطائفون من الرجال والنساء ، الا أن النساء يطفن فى الدائرة الأوسع بمعنى أن الرجال هم الأقرب لبيت الله ، أما النساء فيشكلن دائرة بعد دائرة الرجال ، أى الدائرة الأبعد من الكعبة ، لذا فمن الصعب أن يتمكن كل الطائفين من تقبيل الحجر الأسود ، لذا فبعضهم يرفعون أيديهم تجاهه ثم يمسحون وجوههم بأيديهم قائلين : «الله أكبر أو تبارك الله» · واذا كان الطائفون قليلين انتهزت النسوة الفرصة فقبلن هذا الحجر وأسرعن فى الطواف لتقبيله مرة أخرى وللمكوث أمامه فترة طويلة ، ويعطى الرجال للنساء هذه الفرصة ولا يزاحمونهن احتراما للزمان والمكان ·

وسأقدم لك الآن مزيدا من التفاصيل عن مكة (المكرمة) والكعبة (المشرفة) ·

أما بالنسبة لمكة (المكرمة) فتقع فى واد غير ذى زرع (وتبعد عن ساحل البحر الأحمر بحوالى يوم) والأقرب للدقة أنها تقع وسط تلال صغيرة كثيرة · لذا ، فهى لا تحتاج لبوابات أو أسوار ،ومبانيها كما سبق أن ذكرت عادية جدا فهى غير مهيأة لاستقبال الوافدين ، فما البال بالآلاف المؤلفة من الحجاج الذين يصلون اليها كل عام ! ·

والناس هنا ــ كما لاحظت ــ بائسون ، ونحيلون جدا ويعتريهم الهزال وهم داكنو البشرة ، ويحيط بمكة ــ ولعدة أميال ــ تلال صغيرة متقاربة ، وقد ارتقيت بعض هذه التلال بالقرب من مكة (المكرمة) بحيث كان فى امكانى رؤية مداها عدة أميال · وهذه التلال جميعا من صخور حجرية Stony rocks تميل للسواد وتبدو على البعد كأنها أكوام قش ، لكنها جميعا تتجه نحو مكة ، وبعض هذه التلال يبلغ محيط الواحد منها

نصف ميل ، ولدى آهل مكة بعض الخرافات الغبية فيما يتعلق بهذه التلال ومن ذلك قولهم ان ابراهيم (الخليل) عندما شرع فى بناء الكعبة (المشرفة) آمر الله كل جبل فى العالم أن يقدم من نفسه بعض (الأحجار) لبناء الكعبة فأطاعت الجبال جميعا فأرسل كل جبل جانبا منه ماعدا جبل كرادوج Corra Dog (بالتركية : Qara Dagh) وتعنى الجبل الاسود بالقرب من مدينة الجزائر ، ويرجع سبب سواده ــ كما يقولون ــ انه (أى الجبل) لم يرسل أى أحجار من لدنه مشاركة منه فى بناء الكعبه (المشرفه) **(المترجم : يعلم أى مسلم أن ذلك لم يرد فى السنه الصحيحه ، لكن من الاهميه بمكان ايراد الافكار الشائعة ، لأنها قد تكون أشد تأثيرا فى حركة التاريخ من الحقائق الثابتة ، كما أن ذلك مفيد لدراسة الميثولوجيا العربية)** ، ورغم اقتراب التلال المحيطة بمكة (المكرمة) بعضها من بعضها الآخر ، الا أن الانتقال بينها سهل .

ويوجد فوق قمة أحد هذه التلال كهف يسمونه حراء hira (بالعربية Khira) ومعناها المبارك (؟؟) يقولون ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان معتادا أن يلجأ اليه للتعبد والتأمل والصوم . وهم يعتقدون أنه فى هذا الكهف تلقى الرسول (صلى الله عليه وسلم) جانبا كبيرا من القرآن (الكريم) من جبريل (عليه السلام) وقد دخلت هذا الكهف ووجدته كهفا عاديا غير مزين .

وخارج مكة (المكرمة) بحوالى نصف ميل يوجد تل (جبل) شديد التحدر ، وقد صنعوا درجات (سلما منحوتا) للوصول لقمته التى يوجد عليها قبة Cupda تحت صخرة مشقوقة يقولون ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) عندما كان فى الرابعة من عمره ، حمله الملك جبريل (عليه السلام) ففتح صدره (قلبه) وأخرج منه مضغة سوداء تمثل الفساد (أو خطايا البشر) ثم أغلق صدره (قلبه) فعاد كما كان

ولم يشعر محمد (صلى الله عليه وسلم) أثناء هذه العملية بأى ألم ، وقد تم هذا في موضع هذه الصخرة التي اقاموا عليها قبة • وقد ذهبت بنفسي الى هذا المكان وصحبني كل رفاقي ، وقد صليت بضع ركعات كما صلوا •

وفي مكة ماء وافر ، الا أن العشب فيها نادر الا في مواضع قليلة ، وثمة أنواع مختلفة من الفاكهة الطيبة كالأعناب والشمام والبطيخ والخيار ، والقرع Pumkins (؟) وغيرها ، لكن هذه الفاكهة تجلب من موضع على بعد يومين أو ثلاثة يسمى ــ اذا لم تخنني الذاكرة ــ حبش Habbash .
(علق بيرتون على ذلك قائلا انها تأتي من الطائف وهي مدينة مشهورة ، ويقول الناس انها تأتي من الحجاز ويقصدون الطائف ، وليس حبش فهذا خطأ من بيتس)• والضأن يجلب الى هنا ايضا حيث يتم بيعه • والحرارة في مكة شديدة والناس ينتقلون في الشوارع من جانب الى جانب بحثا عن الظل • والسكان ــ خاصة الرجال ــ ينامون عادة على أسطح المنازل تلمسا لنسمات الهواء ، أو في الشوارع أمام دورهم• وبعضهم يضعون فراشهم فوق حصر رقيقة أمام منازلهم ، وبعضهم يضعون دككا (جمع دكة : وهي مقعد خشبي مستطيل) كتلك التي نضع فوقها البراميل في انجلترا ، وتتماسك أجزاء هذه الدكة بحبال مشدودة شدا شديدا ، ويضعون فرشهم فوق هذه الدكك • وهم يرشون أرض الشارع بالماء قبل وضع فراشهم للنوم ، أما بالنسبة لي فقد كنت أنام ــ عادة ــ في الهواء الطلق دون أى غطاء ــ فوق سطح المنزل• فقد كنت آخذ ــ فقط ــ قطعة قماش كتاني وأغمسها في الماء وأضعها فوقي في الليل ، وأجدها جافة عندما أستيقظ فأبللها بالماء مرة أخرى ، فاذا نمت وصحوت مرة أخرى وجدتها جافة ، وهكذا فانني أظل أبللها طوال الليل مرتين أو ثلاثا •

اما الآن فسأقدم لك بعض المعلومات عن المسجد الحرام ، فابوابه تبلغ حوالى اثنين واربعين بابا (٤٢) ، وهو عدد

غير كبير لآن الظروف ـ احيانا ـ تضطرهم لغلق بعضها ، وهو قريب الشبه من دار المقاصة Royal Exchange في لنـدن ، لكنه (أى المسجد الحرام) أوسع منـه بعشر مرات • وكل ابوابه مفتوحة وتفضي لممرات مغطاة بالحصى ما عدا بعض الممرات التي رصفت بأحجار عريضـة وهي الممرات المؤدية للكعبة المشرفة والأروقة المحيطة بالصحن ـ حيث الكعبة المشرفة ـ مرصوفة بأحجار عريضـة جميلة ، ولها (أى الأروقة) عقود (مقنطرة) ، وعلى الجدران الداخلية للأروقة توجد غرف صغيرة تدور مدار كل الأروقة ، وقد أعدت هذه الغرف الصغيرة (الخلوات) للذين وهبوا حياتهم للقراءة والدراسة والتعبد ، وهذه الطائفة تشبه الى حد كبير طائفة الدراويش •

الدراويش :

والدراويش يعيشون حياة الزهد ويجوبون المنطقة من أقصاها لأدناها كالرهبان المتسولين Medicants ، ويعيشـون على صدقات الآخرين ويلبسون عبـاءات صـوفية بيضاء ، وغطاء رأس طويلا (مرتفعا) من صوف أبيض يشـبه كثيرا غطاء رأس طوائف الرهبان (الفرير) friers فى الكنيسـة الرومانية (الكاثوليكية) Romish Church ، ويضـعون عـلى ظهورهم فروة خروف أو جلد عنز ليتخذوها فرشـا للنـوم وأكمامهم عريضة وطويلة • وعندما يقرءون فانهم ـ عادة ـ يجلسون متربعين فوق الأرض وعادة ما يحملون مسابيحهم their beads حول أعناقهم أو حول أذرعتهم ، بينما يحملها آخرون فى جيـوبهم • وكثيرون من الأتراك يندرجـون فى سلك الدروشة ان أرادوا صلاح أحوالهم • (يقصـد بكلمة الترك غالبا : المسلمين) فعلى سبيل المثال فان سيدى الثانى كان له أخ أصغر منه كان يعيش حياة لاهية فاحشة جـدا ، لكن ـ وعلى حين فجأة ـ تغير حالة تغيرا هائلا ، فأطلق لحيته ولبس عمامة خضراء كبيرة (التى لا يسـمح لأحـد بلبسها الا اذا كان من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم) وأخذ يتعلم

حروف الهجاء (أ ٠ ب ٠ ت ٠ ٠) وفي فترة وجيزة عرف كيف يقرأ وراح يقضي جانبا كبيرا من وقته في القراءة ٠ وقد سخر منه رفاق اللهو القدامي لكنه تمسك بأسلوب حياة قويم رغم كل مزاحهم وسخريتهم ٠

والكعبة القائمة وسط المسجد الحرام مبنى مكعب يبلغ ارتفاعه حوالى اربعة وعشرين قدما ، ويبلغ طول كل ضلع من اضلاعها حوالى أربع وعشرين خطوة ٠ والكعبة مشيدة من احجار ضخام مصقولة ، وليس بها آية عقود وهي مغطاة بكسوة من حرير سميك ، وهي ــ أى الكسوة ــ مزخرفة من فوق وسطها بشريط من حروف من ذهب ولا أذكر مضمون الكلمات المكتوبة بهذه الحروف ، وان كنت أظن أنها تشير لعبارات دينية ، ويبلغ طول الحرف قدمين أما عرضه فيبلغ بوصتين ، وبالقرب من الطرف السفلى للكعبة توجد حلقات نحاسية مثبتة به تمر منها حبال قطيفة تربط بها الأطراف السفلية للكسوة ، وعتبة باب الكعبة مرتفعة بحيث لا يصل اليه من يريد الدخول ، ومن هنا فثمة سلم متحرك يتم احضاره لهذا الغرض (أى عند الرغبة فى تمكين أحد من الدخول) وباب الكعبة مغطى كله بالفضة وثمة ستارة معلقة عليه تصل للأرض ، وتظل هذه الستارة مرفوعة طوال أيام الأسبوع فيما عدا ليلة الثلاثاء ، ويوم الجمعة وهو يوم تعبدهم (يوم سبتهم their Sabbath (★) (المفهوم أنه يوم صلاتهم الجامعة) وقد زينت ستارة الباب بزينات ذهبية ثقيلة ، تزن حوالى عشرين رطلا ، وسطح الكعبة مسطح من جير ورمل ، وثمة ميزاب لتفريغ الماء من فوقه عند هطول المطر ، وفى هذه الأثناء يجرى الناس نحو الميزاب لينزل ماء الميزاب عليهم معتقدين أنه نفحة من السماء ، ويسعدون سعادة فائقة اذا نزل ماء الميزاب عليهم ، بل ويحاولون الشرب

(★) راجع مقدمة الترجمة لمعرفة سبب هذا الاستخدام ـ (المترجم) ٠

منه وان حدث ذلك غمرتهم السعادة ، ويلجأ بعض الفقراء بجمعه وتقديم جزء منه للحجاج · لقاء منحة مالية ·

حمام مكة :

وفي مكة (المكرمة) آلاف من الحمام الأزرق لا يجرؤ أحد على صيده أو ايذائه ، وبعضه أليف لدرجة أنه يتناول قطعة لحم من يدك · وقد قمت بنفسي كثيرا باطعام كثير منه في المنزل الذى أقيم به ، وهذه الحمائم تأتي في أسراب كبيرة الى الحرم حيث يقدم لها الحجاج ــ عادة ــ الطعام ، فثمة أناس فقراء من أهل مكة يأتون للحجاج حاملين معهم نوعا من الأوانى مصنوعة من السمار Rushes مليئة بالحبوب، ويتوسلون للحجاج طالبين منهم شراء بعض الحبوب لاطعام حمامات النبى Hammamet metta nabee ، وقد سمعت أن هذه الحمامات لا تطير أبدا فوق الكعبة كما لو كانت تعلم أنها بيت الله الحرام ، لكننى أعتقد أن ذلك خطأ كبير ، فقد رأيت هذه الحمائم تطير في غالب الأحيان فوق الكعبة (المشرفة) ·

وتفتح الكعبة بابها الا في يومين على مدى ستة أسابيع : يوم للرجال وآخر للنساء ، وقد أتيح لى أن أدخل جوف الكعبة لمرتين طوال فترة مكوثى بمكة ــ حوالى أربعة أشهر ، وهو حظ سعيد لم يتح لآلاف الحجاج لأن الحجاج القادمين برا لا يمكثون بمكة (المكرمة) سوى ستة عشر يوما أو سبعة عشر ·

جوف الكعبة :

وعندما يدخل أى مسلم للكعبة ، فان عليه أن يصلى ركعتين في كل ركن من أركانها، وأن يرفع يديه بالدعاء عقب انتهائه من كل ركعتين · وهم يؤدون صلواتهم في جوف الكعبة بخشوع كامل واستغراق شديد ، فهم لا ينشغلون

بالتطلع والحملقة حولهم ، لأنهم يعتبرون ذلك اثما ، بل انهم يقولون ان من يتطلع حوله في جوف الكعبة يصاب بالعمى لتطفله وحبه للاستطلاع ، ولم أضع هذه الاقاويل في اعتبارى فرحت أنظر حولى غير واضع في اعتبارى هذه المحاذير الأسطورية ، وأعتقد انني لم أجد فيما رأيته شيئا ذا بال ، فلم أر سوى عمودين خشبيين في الوسط لمساندة السقف وقضيبا حديديا مثبتا فيهما، علقت عليه ثلاثة مصابيح فضية أو أربعة ، أعتقد أنه من النادر اضاءتهما ، وأرضية الكعبة (المشرفة) من رخام وكذلك الجدران الداخلية ، وثمة كتابات على هذه الجدران الداخلية لم يكن لدى الوقت الكافي لقراءتها ، ومع أن الجدران الداخلية مغطاة بالرخام الا أنها مغطاة بالحرير على ارتفاع قامات الحجاج . ولا يمكث الحجاج في داخل الكعبة الا لحظات قليلة ، فنادرا ما يمكث أحد أكثر من ثمن ساعة (half a quarter) ، لأن هناك آخرين ينتظرون دورهم للدخول ، وبينما يخرج بعض الحجاج يدخل آخرون ليحلوا محلهم ، وبعد أن ينتهي الجميع فان سلطان مكة (الشريف) لا يعتبر نفسه أهلا لتنظيف البيت ، فيقوم بعض أتباعه بغسل الكعبة وتنظيفها، فيبدءون بغسلها بماء زمزم ، ثم بماء عذب ويتم ابعاد السلم المتحرك الذى يوضع للصعود الى باب الكعبة (المشرفة) فيتزاحم الناس أسفل الباب ليتلقوا ماء غسيل الكعبة ، أما المكانس (أو المقشات) التى ينظف بها بيت الله الحرام فيتم تكسيرها الى قطع صغيرة وتنثر فوق الحجاج المتجمعين ، ويحتفظ من يحصل على عصا صغيرة من هذه المقشات بها كذكرى مقدسة .

الكسوة :

وبأمر من السلطان العثمانى Grand Seignior (٨) يتم اعداد كسوة جديدة للكعبة (المشرفة) فى القاهرة ، كل عام ، وعندما تذهب قافلة الحجاج الى مكة (المكرمة) تحمل

الكسوة الجديدة محملة على جملين ، ولا يتم تحميل هـذين الجملين بأى شيء آخر أو تكليفهما بأى عمل بقية العـام . ويتم ارسال الكسوة من مصر بفرح غامر ويتم استقبالها فى مكة (المكرمة) بفـرح غامر أيضـا لدرجة أن كثيرين يبكون من الفرح ، ويقوم بعض الناس بتقبيل كل جزء من الجملين حاملى الكسوة ، وآخرون يرددون عبارات الترحيب ويلمسون الكسـوة بأيديهم ثم يمسـحون وجوههم ، انهم يفعلون ذلك وأكثر منه لاظهار مدى توقيرهم للكسـوة رغم انها لم توضع على الكعبة بعد ، وهذا يبين لك مدى توقيرهم لبيت الله الحرام .

وعند نزع الكسوة القديمة يضع شريف مكة ــ بمساعدة آخرين ــ الكسوة الجديدة ، ويأخذ الشريف الكسوة القديمة لتكون تحت تصرفه ، فقد يخص بها نفسه فيقطعها قطعـا يبيعها للحجاج الذين لا يبالون بما يدفعون لقاء الحصول على قطعة منها . انهم شغوفون جـدا بهـذه المزق من الكسـوة القديمة فقطعة منها قد تساوى سلطانى Sultane ، وهـو يوازى تسـعة شلنات أو عشرة ، ليس هـذا فحسب بل ان الحبل القطنى الذى يربط به الجزء الأسـفل من الكسوة ، يقطع أيضا الى قطع صغيرة ويتم بيعه . ويشترى كثيرون قطعا من الكسوة القـديمة لوضـعها فوق صـدورهم عندما يوافيهم أجلهم ، وهناك من يحملها معه دائما كتعويذة ضـد الخطر وأعتقد أن السلطان الشريف (يقصد شريف مكة) يجمع أموالا كثيرة من هذه الكسوة القديمة تساوى ما تكلفه الكسوة الجديدة ، رغم أنهم يقولون ان العمل فى الكسـوة يستغرق عاما كاملا لا هم لكثيرين الا هو .

عود للكعبة المشرفة وما حولها :

وأريد أن أذكر مزيدا من التفاصيل عن الكعبة ، رغم أن البعض قد يعتبرون بعض التفاصيل التى سأوردها لا أهمية

لها • فالأرض المحيطة بالكعبة (المشرفة) مرصوفة بالرخام• وهى المطاف أى المنطقة التي يمارس فيها الحجاج شعيرة الطواف ، ويبلغ عرضه حوالى خمسين قدما ، وحول المطاف توجد أعمدة نحاسية يبلغ ارتفاع الواحد منها خمسة عشر قدما ، ويبعد الواحد منها عن الآخر عشرين قدما ، وفوق منتصف كل منها قضيب حديدى يصلها بعضها ببعضها الآخر ، وثمة مصابيح معلقة فوق هذه القضبان بأسلاك نحاسية ثلاثية تضاء ليلا ، فالطائفون لا يكفون فى موسم الحج عن أداء شعيرة الطواف ليلا ونهارا • وهذه المصابيح الزجاجية تملأ لنصفها بالماء ويوضع الزيت ليطفو فوق الماء ، وفوق الزيت سلك نحاس حلزونى قائم فوق ثلاث قطع صغيرة من الفلين لتجعله يطفو ، وفى وسط هذا السلك النحاسى الحلزونى توضع فتيلة ، أو قطنا ، ويشعلونه ، فيظل مشتعلا حتى ينتهى الزيت ، وفى كل يوم يغسلون هذه المصابيح ويزودونها بماء جديد وزيت وقطن أو فتائل •

وفى مواجهة كل جانب من جوانب الكعبة (المشرفة) الأربعة ، بنيت غرفة صغيرة ، فوقها غرفة أصغر فى كل جانب من جوانبها نافذة ، وفى هذه الغرفة العلوية يؤذن المؤذنون ويصلى الأئمة بالناس الذين يكونون فى مستوى أدنى منهم (فالامام فوق ، فى الغرفة ، والمصلون «المأمومون» فى المطاف والأروقة على مستوى الأرض) ، وسبب بناء هذه الأبنية الأربعة حول الكعبة أن المسلمين ينقسمون الى أربعة مذاهب : المذهب الأول هو المذهب الحنفى ومعظم أتباعه من الأتراك ، والمذهب الثانى هو الشافعى الذى يتبعه أهل الجزيرة العربية ، والمذهب الثالث هو الحنبلى وأتباعه قليلون ، والمذهب الرابع هو المالكى ويتبعه أهل البلاد الواقعة غرب مصر حتى امبراطورية مراكش ، **وهذه المذاهب جميعا متفقة فى الأسس ، ولا يوجد بينها الا اختلافات بسيطة فى الشكليات** ، فالأحناف ــ على سبيل المثال ــ عندما

يقفون للصلاة يلمس الواحد منهم باصبعى ابهـامه حلمتى أذنيه ، ثم يعقد يديه على بطنه (سرته) واضعا يده اليمنى فوق اليسرى ، ويقولون انهم يفعلون ذلك توقيرا لله سبحانه الذين يقفون أمامه • أما أتباع المذهبين المالكى والشـافعى فيقف الواحد منهم وقد سربل يديه (أى وضعهما جانبه ولم يعقدهما) ، ويقولون أيضا انهـم يفعلـون ذلك توقيرا لله سبحانه ، ولا يختـلف الحنابلة عن الأحنـاف الا قليلا • • ويبدو أتباع المذهب الحنفى هم الأكثر جدية فى صلاتهم • وكل مسلم يعتقد فى أن محمدا رسول الله ، ويؤيدون خلافة خلفائه الأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، لكن الحنابلة لا يقرون خلافة على ، ولذلك فان أتبـاع المـذاهب الأخرى يعتبرونهم هراطقة (**المترجم : هـذا كما هـو معلوم غـير صحيح ، فأتباع المذهب الحنبلي ـ مثلهم مثل أتباع المـذهب الحنفي والمذهب الشافعي والمذهب المالكى ـ يقرون خلافة على بن أبى طالب ، ويحتفون به ويترضون عنه ، ولا يختلف المذهب الحنبلى ـ كما ذكر بيتس نفسه ـ عن المذاهب الأخرى الا فى شكليات بسيطة ، والواقع أن هذه المذاهب الأربعة قد اتخذت فى بعض الأحيان ـ بغـير حق ـ سـتارا للتعبير عن الوطنية الضيقة ان صح هذا التعبير ، فلأن الامام الشـافعى عاش فى مصر معظم حياته فقد أصبح المصريون شـوافع ، ولانتشار مذهب ابن حنبل وسط الجزيرة العربية لأنه مذهب يميل للتفسير الظاهرى ، فقد أصبح هذا المذهب فى وقت من الأوقات دينا ووطنية أيضا ـ ان صـح التعبير ـ لـكن حقيقة الأمر أنه لا توجد خلافات جوهرية من الناحية الدينية بين هذه المذاهب وان اختلفت منـاهج بعضـها ، فالمـذهب الحنفى يوسع باب الاجتهاد ، والمذهب الحنبلى ـ كما سبق القول ـ يميل للتشدد والتفسـير الظاهرى ، لـكن المحصلة النهائية لهذه المذاهب تكاد تكون واحدة • وقليل من المثقفين المسلمين الآن هم الذين يعرفون مـذاهبهم ، فهم مسلمون**

فقط ، والخلافات الشكلية في الوضع أثناء الصلاة لم تعد قائمة) .

وعلى بعد حوالى اثنتي عشرة خطوة من الكعبة (المشرفة) يوجد مقام ابراهيم Sepulchre of Abraham الذى بنى الكعبة ـ كما يقولون ـ بأمر من الله (سبحانه) ويحيط بهذا المقام شبكة حديدية ، وهو مغطي بكسوة مزركشه جميله ، وهو مشيد كشواهد القبور المحدثة في بلادنا ، ويحملق الناس في هذا المقام بحب . وعلى مسافة قصيرة منه تجاه اليد اليسرى توجد بئر زمزم ويعتبرون ماءها مقدسا ، ويقدرونه تقديرا فائقا . كما يقدس الكاثوليك ماءهم as papists do theirs (★) . وفى شهر رمضان يفطرون به ويقولون انه حلو كالحليب ، أما بالنسبة لى فلم أر أنه يختلف عن أى ماء آخر الا أنه يميل الى الملوحه شيئا ما . ويشرب منه الحجاج بكميات هائلة عند وصولهم لمكة (المكرمة) أول مرة ليس فقط ليطهروا أنفسهم ، وانما لتنفض أجسامهم كل الخطايا وليخلصوا أرواحهم من كل الآثام . وفى شهر رمضان يتم ملء مئات من أباريق المسجد الحرام بماء زمزم وتوضع أمام الناس ـ ومعها أكواب ـ قبيل أذان المغرب وبمجرد أن يؤذن المؤذن من فوق المئذنة ـ يشربون من هذا الماء بنهم قبل أداء الصلاة . وتوجد بئر زمزم وسط غرفة من الغرف الصغيرة التى أشرنا اليها آنفا والقائمة ازاء كل جانب من جوانب الكعبة (المشرفة) وتبعد عنها حوالى اثنتى عشرة خطوة أو أربع عشرة خطوة ، ويقف عند البئر أربعة رجال لسحب الماء منها دون مقابل ، ويستخدم كل رجل من هؤلاء قربتين من جلد مربوطتين بحبل الى عجلة صغيرة ، وبينما تدور العجلة ترتفع قربة مملوءة وتهبط قربة فارغة لتملأ من جديد ، والمسلمون لا يشربون من هذا

(★) راجع مقدمة المترجم لتعلم ان العبارة تنطوى على سخرية من الكاثوليك والمسلمين معا ، فقد كان بيتس يكن كراهية شديدة للكاثوليك ـ (المترجم) .

الماء فقط بل انهم ـ احيانا ـ يستحمون به بعد أن يخلع الواحد منهم ملابسه ما عدا قطعة قماش رقيقة يغطي بها نصفه الاسفل ، ويقوم ساحبو الماء بافراغ خمسة أوان (جرادل) أو ستة فوق رأسه ، ويجوز من الناحية الشرعية ان يغسل المرء نصفه العلوى بماء زمزم ، ولا يجوز غسل نصفه السفلي به ، فهذا لا يليق ، فبعد غسل النصف العلوى يترك الماء ليتخذ سبيله الى الأرض لا الى موضع العورة **(المترجم : ربما كان هذا من فكر العوام ، لكن لا نعرف ان فى السنة ما يمنع استخدام ماء زمزم فى أى غرض ، وهذا لا ينفى قداسته أو مكانته الخاصة لدى المسلمين ، فماء زمزم « لما شرب له » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لكن الفكر الشعبى ـ على أية حال ليس متفقا على تحريم استخدام ماء زمزم لغسل الجزء الأسفل من الجسم ، وقد رأيت حجاجا كثيرين يغتسلون بهذا الماء دون تفرقة بين الجزء الأسفل او الأعلى من أبدانهم) .**

وباختصار فانهم غالبا ما يقصرون استخدام هذا الماء على الشرب ، والاستحمام بعد أن يستخدموا ماء عاديا لغسل عوراتهم (القبل والدبر their secret parts) بماء عادى ، بل ان حجاجا كثيرين يحملون بعضا منه الى بلادهم في قوارير من صفيح أو نحاس أصفر ، ويهدونه لأصدقائهم بواقع ملء نصف ملعقة لكل منهم ، فيتلقاه الأصدقاء بامتنان كبير وفرح غامر فيرتشفون منه قليلا ويمسحون ببقيته وجوههم ورءوسهم ، ويرفعون أيديهم طالبين من الله عز وجل أن يتيح لهم أيضا فرصة الحج الى بيته العتيق ، وسبب توقيرهم الشديد لماء زمزم ـ كما يقولون ـ أن موضع البئر هو الموضع الذى طرحت فيه هاجر ابنها اسماعيل ، وقد سمعتهم يروون القصة تماما كما وردت فى الفصل الواحد والعشرين من سفر التكوين Genesis ، ويقولون ان بئر زمزم تبعت فى موضع ركلة الطفل اسماعيل (عليه السلام) " .

عرفات :

وسأخبرك الآن عن الوقت والمكان اللذين يصبح فيهما المسلم حاجا حقيقة (يتلقى اللقب المبجل : حاج) وهو الامر الذى تحمل من أجله المشقة وأنفق المال ·

ان عيد الأضحى يأتي بعد شهر رمضان بشهرين وعشرة أيام · وفي اليوم الثامن بعد الشهرين آنفي الذكر يلبسون ملابس الاحرام مرة أخرى ويذهبون الى جبل عرفات الذى سمى بهذا الاسم لأن آدم ــ كما يقولون ــ قد تعرف فيه على حواء مرة أخرى، ويقولون ان حواء مدفونة فى جدة ، ويصلى المسلمون (الحجاج) الذين يصلون مكة عن طريق البحر الأحمر ــ ركعتين عند قبرها · ولم أملك الا الابتسام عند سماعي حكاياتهم السخيفة ، فقد لاحظت أنهم وضعوا حجرا عند رأسها وحجرا آخر عند قدميها ، وبين الحجرين مسافة طويلة تقرب من رمية سهم ، وفي الوسط مصلى صغير حيث يصلى الحجاج ·

وجبل عرفات ليس ضخما ضخامة تجعله يستوعب الأعداد الهائلة من الحجاج الذين لا يقلون ــ كما يقال ــ عن سبعين ألفا كل عام ، وفي اليوم التاسع من شهر ذى الحجة يعوض الله (سبحانه) هذا العدد بملائكة من عنده ينزلون على هيئة بشر ــ ان كان عدد الحجاج أقل من العدد آنف الذكر · لقد كان عدد الحجاج فى عرفات كثيرا جدا ، لكننى لا أظنه يصل الى سبعين ألف حاج · وثمة أحجار دالة تحيط بالجبل لتحديد حدود ما يسمى عرفة أو عرفات ، وتعترى الحماسة بعض الحجاج فيأتون الى هنا قبل الميقات وينصبون خيامهم ، منتظرين يوم عرفة أو يوم الوقفة · ولم أر فوق عرفات أية معالم يمكن وصفها ، الا قبة صغيرة فوق الجبل · وفي حوالى الساعة الواحدة أو الثانية وهو وقت الصلاة توضأنا استعدادا لها (بالتركية euile بالفارسية namaz)

لقد كان مشهدا يخلب اللب حقا أن ترى هــذه الألاف المؤلفــة فى لباس التواضــع والتجرد من ملذات الدنيــا ، برءوسهم العارية وقد بللت الدموع وجناتهم ، وأن تســمع تضرعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حيــاة جــديدة ، وتستمر هذه التضرعات وتلك الابتهالات طوال أربع ساعات أو خمس أى حتى يحين ميعاد صلاة العشاء أى بعــد الغروب بحوالى نصف الساعة (؟) ٠

وانه لأمر يدعو للأسف أن نقارن ذلك بالخلافات الكثيرة بين المسيحيين ٠

وبعد الوقوف بعرفة يتلقى الجميع من الامام emaum or imam لقب « الحاج » وهو لقب يظل الواحد منهم يحمله ــ بفخر ــ حتى مماته ٠ وبعد تلقيهم لقب « الحاج » ينفخ فى البوق trumpet ايذانا بمغادرة عرفة ، وبعد ميلين أو ثلاثة ــ فى طريق العودة ــ يبيتون ليلة ، لكن كل واحد منهم يجمع قبل الصلاة ــ وقبل وصولهم لمستراحهم هــــذا ، تسعا وأربعين حصاة صغيرة ، الواحدة منها فى حجم البندقة ، وسأذكر لك سبب ذلك ومعناه ٠

وفى الصـــباح التـــالى يتحركـــون الى منى Mina (بكسر الميم) وينطقونها منى Muna (بضم الميم) وهـــو المكان الذى ذهب اليــه ابراهيم (الخليــل) ليضــحى بابنه اسحق Isaac ففداه الله بذبح ســمين (**المترجم : القــول الراجح لدى المسلمين أنه اسماعيل عليه السلام**) وهنــاك يذبحون أضحياتهم ، وتبعــد منى عن مكة بحــوالى ميلين او ثلاثة ٠ وقد رأيت هنا صخرة مشقوقة من وسطها ويقولون ان هذا الشق ناتج عن أثر سكين ابراهيم (الخليل) الذى شق الحجر بدلا من رقبة ابنه اسماعيــل بفضــل توجيه الله (سبحانه) ليده بعيدا عن رقبة (اسماعيل) ٠ انها لضربة قوية حقا !

وفي منى ينصب الحجاج خيامهم فثمة سهل واسع ، ويقضون يوم عيد الأضحى (عيد القربان) ، وبعد ذلك يذهب كل حاج في اليوم الأول ليرمي سبع جمرات (حصوات) على العمود الأول ويقصدون بهذا رجم الشيطان وأفعاله ، لأنهم يقولون أثناء الرجم : « انني أرجم الشيطان وحزبه » وثمة عمودان آخران متقاربان يرجمون أحدهما في اليوم الثاني ، والآخر في اليوم الثالث • وأثناء توجهي للرجم قابلني حاج فكه وقال : « لابد أن ترجم بسرعة من فضلك ، لأنني قد فقأت عيني الشيطان لتوي » •

ويجب أن تلاحظ أن أهل البلاد يجلبون الى هذا المكان • قطعانا كثيرة من الأغنام لبيعها ، فيشترى كل حاج خروفا ويضحي به ، ويقدمون بعض أضحياتهم لأصدقائهم وبعضها للفقراء ، ويأكلون ما تبقى ، وبعد ذلك يحلقون رءوسهم ويخلعون لباس احرامهم ويلبسون ملابس أخرى ويحيي بعضهم بعضا قائلين : « عيدكم مبارك » ويتبادلون القبلات •

ويقضون هذه الأيام الثلاثة في فرح واحتفالات ، ويصبح الليل نهارا بسبب وفرة المصابيح المضاءة ، ويطلقون البنادق ، وتمتلىء السماء بالألعاب النارية ، لأنهم يعتقدون أن كل ذنوبهم قد ذهبت أدراج الرياح وأنهم ــ اذا ماتوا ــ دخلوا الجنة مباشرة (بغير حساب) اذا لم يرتدوا عن دينهم ، أما بالنسبة للمستقبل فان الله يكافىء حسنتهم بعشرة أمثالها ، وان أى حاج يعود لحياة الفسق يعتبره الآخرون شريرا فاسقا • (المترجم : المعروف أن الله سبحانه يكافىء الحسنة بعشرة أمثالها ، ومن فعل سيئة لا يجزى الا بمثلها) وقد كتب بعض المؤلفين أن الحجاج ــ بعد عودتهم لبلادهم ــ يصبحون صارمين ويقسون على أنفسهم كأن يحملقوا لمدة طويلة في قراميد محماة أو قوالب حديد ساخنة حتى يفقدوا القدرة على الابصار ، وهدفهم من ذلك ألا تقع أعينهم على

ما حرم الله ، بعد رؤيتهم للكعبه (المشرفة) لـكنني حميسه لا اعرف أحدا فعل ذلك ٠

وخلال الايام الثلاثة التي يقضـــونها في منى ــ يفـــكر الواحد منهم ، اذا لم يكن واهنـــا ضعيفا ، في زيارة الكعبـــة (المشرفة) مرة واحدة على الاقل ٠ انهم يشدون الرحال الى هناك بحماس فائق لالقاء نظرة جديدة على بيت الله الحرام ، فاذا ما رأوه انفجرت عيونهم بدموع الفرح وبعـد الطواف والصلاة يعودون ثانية الى منى وبعد انتهاء أيام عيد الاضحى الثلاثة Byram يعـــودون جميعـــا حاملين خيـــامهم الى مكة (المكرمة) مرة أخرى ٠

ويقال انه بعد مغادرة الحجاج منى الى مكة (المكرمة) يرسل الله رخات من المطر لغسل القذر والروث المتبقى من ذبح الأضاحى ، كمـــا يرســـل الله المـــلائكة لتحمـــل الحصى (الجمرات) الذى رمى به المســـلمون رمز الشـــيطان ، وتعيدها الى أماكنها قبل موسم الحج التـــالى ، لكننى متـــأكد أننى رأيت الحصوات التى رجمت فى الموسم الســـابق ملقاة مكانها على الأرض عند الأعمدة التى يرمز المسلمون بهـــا للشيطان ٠

وبعد العودة لمكة (المكرمة) يمكثون هناك زهاء عشرة أيام أو اثنى عشر يوما ، حيث تعقد سوق كبيرة تباع فيها كل بضـــائع الهنـــد ، كمـــا تبـــاع فيها أحجار كريمة للخـــواتم والأساور ٠٠ الخ المجلوبة من اليمن ، وكذلك بضائع الصين والمسك وغيرها من الأشياء الغريبة ٠ انه الوقت الذى ينشغل فيه الحجاج بالشراء لأنهم يعتقدون أنه من الأمور غير الشرعية أن ينشغلوا بالبيع والشراء قبل اتمام الفريضة ٠ ويقوم كل حاج الآن بشراء كفن Kafan وهو عبارة عن قطعة كتـــان رقيقة ليكفن فيها ، وهم يغمسونها فى ماء زمزم ، وتلك

ميزة قد لا تتاح لهم في الجزائر او غيرها - ويحرصون على حمل هذا الكفن معهم أينما ذهبوا ، بحرا أو برا فاذا ماتوا كفنوا به ٠

وفي المساء السابق لمغادرة مكة المكرمة لابد من طواف الوداع ، فيدخل المرء من باب السلام فيطوف قدر ما يستطيع وبعض الناس يظلون يطوفون حتى يعتريهم التعب (**المترجم : طواف الوداع ، كطواف القدوم ، كطواف دخول المسجد : سبعة أشواط**) وتفيض عيونهم بالدمع لأنهم يودعون بيت الله ويبدون حقيقة غير راغبين في مفارقته ويشربون من ماء زمزم حتى الامتلاء ويتراجعون الى باب الوداع ووجوههم صوب بيت الله ، وبيت الوداع هذا مواجه لباب السلام ، وعند خروجهم من باب الوداع يعقدون أيديهم تجاه بيت الله ، فمن غير اللائق أن يولوا ظهورهم للبيت عند الوداع ، ويظلون في حالة بكاء وهم يدعون ويتوسلون الى الله حتى يصلوا بيوتهم ٠

وقبل أن أغادر مكة (المكرمة) سأعرفك بحوار دار بيني وبين تركى بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في الحرم المكى ٠

فالحجاج يقضون هذا الوقت الذى يصل الى ساعة ونصف الساعة ــ أو جانبا كبيرا منه في الطواف ، ثم يجلسون فوق الحصر ليريحوا أنفسهم ٠ وهذا ما فعلته ، وبعد أن جلست للحظة تمددت أخيرا لفرط التعب لأريح ظهرى ، وكانت قدماى ــ كأقدام الآخرين ــ صوب البيت لكن بعيدا عنه (**المترجم : ان كان هذا الوضع عن عمد وسوء طوية فهو بلا شك من اساءة الأدب ، أما ان كان عفوا وغير مقصود فلا شيء فيه ، وفي الريف المصرى كان الجيل السابق ــ كما سمعت بنفسي ــ يتحرون ألا تكون دورة المياه في اتجاه الكعبة المشرفة رغم بعد المسافة**) وقد سألنى التركى الجالس الى جانبى عن بلدى فقلت له : انى « مغربى » فقال : « من أى

بلاد المغرب ؟ » فقلت : « من الجزائر » فقال : « لقد تعبت كثيرا وتكلفت كثيرا حتى وصلت هنا ، لكنك بمدك قدميك نحو الكعبة المشرفة ترتكب عملا غير وقور ؟! » ·

ويوجد هنا مغاربة (أو مسلمون Moors) كثيرون يكسبون رزقهم ببيع نماذج مصغرة للمسجد الحرام للغرباء ، وبتقديم خدمات للحجاج · ويوجد هنا عدد من الأفندية (جمع أفندى Effendies) أو المتعلمين يقرءون القرآن الكريم وهم جلوس على مقاعد مرتفعة (دكك جمع دكة ، وتسمى فى الحجاز أحيانا مركاز) ويفعل الشيء نفسه بعض الحجاج المتعلمين أثناء اقامتهم بمكة (المكرمة) ·

وتحت غرفة الأحناف (مقام الأحناف) التى ذكرتها فى الصفحات السابقة يتجمع الناس عادة فى فترات ما بين الصلوات ويجلسون متربعين فى حلقات Cross-legged وقد تبلغ الحلقة عشرين أو ثلاثين ، ومعهم زوجان من المسابح الضخام جدا ، كل حبة من حباتها فى حجم القبضة ، ويمررون حبات المسبحة بينهم الواحد تلو الآخر ، الحبة تلو الحبة ، طوال الوقت وهم يرددون عبارات دينية · وقد انخرطت أنا نفسى معهم فى هذه اللعبة التى تسبب بهجة طاغية للأطفال ومع هذا فقد أظهرت من مظاهر التقوى ما فيه الكفاية **(المترجم : هذا يدل على عدم فهمه لعبارات التسبيح التى كان يرددها هؤلاء المسبحون ، وعلى أية حال فان استخدام المسابيح وما الى ذلك ليس أمرا ضروريا للتسبيح)** ·

وثمة دراويش هنا يتكسبون بسبب احراقهم للبخور أمام الجالسين ، ويكثرون أيام الجمع ، وفى جميع المساجد يمر هؤلاء الدراويش وقد حمل الواحد منهم المبخرة باحدى يديه وكيس البخور باليد الأخرى ــ بين صفوف المصلين

الجالسين بينما الامام يخطب وهم يفعلون ذلك بهدوء ودون جلبة .

ورغم قداسة مكة (المكرمة) فهى كغيرها من المدن لا تخلو من بعض مظاهر الفساد (المترجم : قد يكون هذا القول نابعا من تعصبه لأنه لم يذكر لنا شيئا من ذلك ، وثمة رحالة أوروبى آخر سبقه هو فارتيما فى مطلع القرن السادس عشر لم يذكر لنا أى مظهر من مظاهر الفساد ، وان ألمح بيرتون لشيء كهذا فى القرن التاسع عشر ، لكن المؤكد أن الاصلاحيين السلفيين قد بذلوا بعد ذلك جهدا كبيرا للقضاء على البدع ومظاهر الفسق ، وهذا الأمر لا يخلو على أية حال فى أى تجمع بشرى) أما من ناحية النظافة فهى مساوية للقاهرة ، ولكن اللصوص لا يتورعون عن السرعة حتى فى الحرم ذاته .

وسأقص عليك قصة أو قصتين ، الأولى عن متسول فى مكة (المكرمة) لا يستخدم الا عبارة واحدة لحث الناس على التصدق له : من تصدق فانما يتصدق على نفسه Her ne yapparsen gendinga ، وبالتركية (har na yaparsan Kendina) فمر عليه أحد جيرانه غير الصالحين فأراد أن يتأكد من هذا القول فقدم للمتسول كعكة بها سم كصدقة ، فأخذها المتسول شاكرا ووضعها فى جواله واعتقد الجار السيىء أنه سيسمع خبر موت المتسول بعد قليل ، لكن حدث أن ابن هذا الجار كان يلعب ورأى المتسول يأكل فطلب منه قطعة من الخبز فقدم له المتسول الكعكة نفسها التى تصدق بها أبوه ، فأكلها الطفل ومات . **ولدى من الأسباب ما يجعلنى أصدق هذه القصة لذا ، فان علينا أن نشجع الاحسان الى الفقراء . . . .** متسول آخر كان دائما يستخدم هذه العبارة فى تسوله : من قدم شيئا بيديه وجده بعد الموت Herne wearersen elingla, o gidder senncla وهذا يؤكد أيضا أن هؤلاء المسلمين يعتقدون بأنهم يكافأون باحسانهم .

والآن وقد تناولت توفير المسلمين الشديد للقران (الكريم) وطريقة تعبدهم فى مساجدهم وحجهم الى مكة (المكرمة) وطريقة تعبدهم هناك سأضيف فقط أننى قرأت اخيرا ترجمة انجليزية للقرآن الكريم ، ذكر مترجمها فى مقدمته أنه من غير المسموح به للعامة من المسلمين قراءة القرآن ، وأن عليهم أن يعيشوا حتى مماتهم لا يعرفون الا ما يقوله علماؤهم (شيوخهم)، وهو قول أرفضه جملة وتفصيلا، فقراءة القرآن (الكريم) · متاحة للجميع ، بل وينظرون بتوقير لكل من يحسن قراءته والقضية ـ كما هى عندنا ـ هل يحسن المرء القراءة أم لا· والمسلم يدفع ثمانية دولارات أو عشرة مقابل نسخة من القرآن مع العلم أن دولارهم يساوى حوالى شلنين وثلاثة بنسات ·

وبعد أن حدثتك عن حج المسلمين لمكة المكرمة The Turk's Pilgrimage to Mekka وعن مناسكهم ، فاننى أوشك الان ان أطوف طواف الوداع وأغادر مكة المكرمة ، وقد رويت مارويت لك صادقا أمينا وأتحدى العالم أن يتهمنى بالكذب·



ترتيبات القوافل :

وبعد أن استأجرنا جمال النقل ، خرجنا من مكة (المكرمة) لكننا دفعنا كثيرا لاستئجار الجمل كما لو كنا نستأجره من مكة لمصر ، وهى المسافة التى تستغرق حوالى أربعين يوما بمعنى أننا دفعنا حوالى خمسة جنيهات استرلينية أو ستة · واذا حدث ومات الجمل أثناء الطريق أمدنا الجمال بجمل آخر، وعلى هذا فان هؤلاء الجمالين القادمين من مصر ـ مع القافلة ـ الى مكة ، يحضرون معهم عديدا من الجمال الاحتياطية لوعورة السير ليلا مما يؤدى لموت جمال كثيرة أثناء الطريق ،

فاذا حدث وسقط جمل فمن النادر ما يكون قادرا على النهوض مرة أخرى ، واذا نهض فانهم يفقدون الأمل في قدرته على مواصلة السير أو حتى قدرته على أن يكون صالحا للعمل مرة أخرى ، لذلك فاذا سقط الجمل رفعوا عنه حمله وذبحوه kill it فيأكل لحمه الفقراء في القافلة · وقد أكلت أنا نفسى لحم الجمل فوجدته حسن المذاق ومفيدا للصحة · واذا اعترى جمل التعب (ولم يذبحوه) تركوه مكانه ·

مغادرة مكة (المكرمة) :

لقد كان اليوم الأول الذى خرجنا فيه من مكة (المكرمة) خاليا من النظام تماما ، فكان ثمة هرج ومرج ، أما في اليوم الثانى فقد عمل كل شخص على احراز السبق وبسبب هذا حدثت معارك ومشاجرات بين الحين والآخر ، لكن بعد أن أخذ كل شخص مكانه في القافلة احتفظ به وسارت الأمور منتظمة حتى وصلوا للقاهرة · وهم يجعلون أربعة جمال في المقدمة ويربطون بعضها ببعض لتكون قطارا kitar ، ويسمون الحملة كلها قافلة ، فالقافلة اذن مقسمة الى قطر (بضم القاف والطاء) أو قطارات ، ولكل قطار اسمه ، وهو يتكون من آلاف الجمال ، ويسير كل قطار وراء قطار آخر ، وكأنهم في حملة عسكرية ، وعلى رأس كل قطار قائد مسئول يجلس في تختروان يحمله جملان أحدهما أمام الآخر والتختروان مغطى بقماش شمعى وفوقه قماش سميك ، وان كانت زوجة هذا القائد معه جعلوا لها هي الأخرى تختروان على شاكلة تختروان زوجها ، وعلى رأس كل قطار جمل يحمل أموالها (كنوزها) ·· الخ ، ويضعون لهذا الجمل جرسين : جرس على كل جانب من جانبيه ، وهو ــ أى الجرس ــ في ضخامة جرس السوق عندنا بحيث أن صوته يسمع من مسافة بعيدة · وثمة جمال أخرى يضعون حول رقبتها أجراسا ، وبعضها حول أرجلها ، كتلك الأجراس التى يضعها الحمالون عندنا حول رقاب خيول المقدمة ، فتظل هذه الأجراس تدق طوال

الليل بالاضافة للأجراس التى يحملها السائرون على الأقدام والجمالون ، ويكون لرنينها صوت محبب يجعل الرحلة تمضى بهيجة • وهم يقولون ان هذه الموسيقى تجعل الجمال نشطة ، وبهذه الطريقة تسير الأمور منتظمة حتى يصلوا للقاهرة ، وبدون هذا الانضباط يمكنك أن تتصور الفوضى التى يمكن أن تحدث لهذه الجموع الهائلة •

المشـــــاعل :

ويشعلون بالليل شعلا مرفوعة على قضبان لهداية القافلة الى الطريق ، ومما يذكر أن القافلة تقطع رحلتها ليلا معظم الوقت تجنبا لحرارة الشمس الشديدة نهارا • وهذه المشاعل تشبه الى حد ما المواقد الحديدية (الأوانى الحديدية التى يتم اشعال النار داخلها) فهم يضعون فى هذه الآنية الحديدية بعض الأخشاب الجافة التى خصصوا بعض الجمال لحملهـا (الأخشاب الجـافة أو الحطب) ، وقد أوكلـوا بالمشـاعل أشخاصا يزودونها بهذه الأخشاب كلما أوشكت النيران عـلى الانطفاء • ولكل قطار مشعل يخصه ويدل عليه ، وبعض القطارات لها اثنا عشر مشـعلا أو أكثر من ذلك أو أقل • ولهذه المشاعل أشكال مختلفة وأعـداد مختلفـة ، فبعضها بيضاوى كالبوابة ، وبعضها ثلاثى triangular أو على شاكلة حرف N أو M • • الخ وذلك حتى يستدل كل شخص على قطاره من خلال تأمل هذه المشـاعل ، بمعنى أن لكل قطـار مشعلا أو مشاعل مميزة • ويكون حامل المشـاعل فى مقدمة القطار ، وترفع المشاعل وتثبت عند توقف القافلة ، كـل مشعل يبعد عن المشعل الآخر بمسافة • وتحمل هذه المشاعل فى النهار أيضا لكن بغير نار فيستدل الحجـاج من أشـكالها وأعدادها على قطاراتهم كما يستدل العساكر عـلى كتائبهم بأعلامها • وبدون ذلك ، لابد أن الفوضى كانت ستدب بين هذه الأعداد الغفيرة • وكانت القافلة تتـوقف كل صـباح

وينصب أفرادها خيامهم ليستريحوا لعدة ساعات . وعند انزال الحمولة من فوق الجمال يقودها الجمالة ليسقوها ويقدموا لها العلف .. الخ وكنا نساعدهم في ذلك فليس لدينا ما يشغلنا .

وبمجرد توقف القافلة كان عملي هو اشعال نار صغيرة واعداد القهوة ، وبعد تناولنا لوجبة صغيرة وشربنا للقهوة نستلقي لأخذ قسط من النوم . وبين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية عشرة نسلق طعاما للغداء ، وبعد أن نتناوله نستلقي مرة أخرى ونظل نائمين حتى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وعندما تدق الطبول يكون معنى ذلك أن نجمع (نهد) خيامنا وأن نحمل جمالنا لمواصلة الرحلة ، وتستغرق عملية الاستعداد والتحميل ساعتين ، فتقف الجمال متهيئة للمسير كرة أخرى ، وفى وقت صلاة المغرب gega nomas وكذلك وقت صلاة العشاء acshan nomas تتوقف القافلة لأداء الصلاة (يا لهم من دقيقين فى أداء صلواتهم !) وتصل القافلة سائرة حتى صباح اليوم التالى ، واذا كان الماء شحيحا قمنا بالتيمم abdes واذا وجدوا صعوبة فى اناخة جمال القافلة وتحميلها مرة أخرى ، أخروا صلاتى المغرب والعشاء لليوم التالى ، لكنهم يؤدونها على كل حال **(المترجم : من الواضح أن هذا الرحالة غير مدرك أنه يجوز للمسافر أن يجمع صلاتين جمع تقديم أو جمع تأخير وفقا لما يتهيأ له من ظروف) .**

أما بالنسبة للمؤن فقد زودنا أنفسنا من مصر عند قدومنا بما يكفينا لرحلة الذهاب لمكة (المكرمة) والعودة . وفى مكة (المكرمة) قدرنا ما يكفينا ليوم وقسمنا ما معنا ليكفى أربعين يوما هى المدة التى تستغرقها الرحلة لمصر . واذا وجدنا ـ ونحن فى مكة ـ أن مامعنا لا يكفى مدة الرحلة ، اشترينا ما ينقصنا منها (أى من مكة المكرمة) ، ويقدم مندوبو السلطان (العثمانى) Grand Seignior الماء كصدقة

للفقراء الذين يسيرون مع الحمله على آقدامهم طوال الطريق، فهناك كثيرون يقطعون رحلة الحج دون أن يكون معهم آى مال معتمدين على صدقات الحجاج الآخرين ٠

أيرلندى رفض ترك الاسلام :

ويحمل كل حاج مؤنه معه وكذلك ماءه وفراشه ٠٠ الخ وعادة ما يتجمع كل ثلاثة أو أربعة معا لتناول الطعـام ، ويدعون فى بعض الأحيان أحد فقراء الحملة لتناول الطعام معهم ٠ وكان يوجد أيرلندى مرتد renegadō (المترجم : يقصد أنه تحول للاسلام) أخذوه صغيرا جدا لدرجة أنه لم يفقد دينه المسيحى فقط بل ولغته الانجليزية أيضا ٠ وهذا الرجل عانى من العبودية ثلاثين عاما فى اسبانيا وفى السفن الفرنسية (؟؟) French gallies ، لكنـــه بعــــد ذلك تحــرر وعاد للجزائر ، وكان الناس ينظرون له كرجل صالح تقى متدين لأنه لم يترك العقيدة الاسلامية رغم تعرضه للغواية كى يتركها ٠ وكان بعض جيرانى الذين قصدوا للحج فى العام نفسه الذى حججت فيه مع سيدى قد عرضوا على هــذا الايرلندى المرتد (المترجم : يقصــد المســلم) أن يتكفلوا بتكاليف حجه ان خدمهم أثناء الرحلة ، فقبل العرض سعيدا ، وأذكر أننا عندما وصلنا الى مكة (المكرمة) قال لى بعاطفة جياشة ان الله (سبحانه) نجاه من جهنم على الأرض ويقصــد بهذا فترة عبوديته فى اسبانيا وفرنسا ، وأن الله (سبحانه) قد مكنه من الوصول الى جنته على الأرض ويقصد بهذا مكة (المكرمة) ٠ وقد عجبت كثيرا لفرط حماســـه وايمانه ، لكننى أشفقت عليه ٠

ويحملون المـــاء فى قرب جلدية ويثبتونها عــلى جــوانب جمالهم ، وقد يحدث ألا نصادف ماء فى الطريق طوال يومين أو ثلاثة وأحيانا أكثر من ذلك ، لكنه بات معروفا أن الجمل مخلوق يتحمل العطش ، فالله جلت قدرته قد هيأه للسفر فى

صحراء شبه الجزيرة العربية الشاسعة ، وبدون هذه المقدرة يكون عسيرا – ان لم يكن مستحيلا – أن يقطع هذه الفيافى الجرداء . ولكل مجموعة تقيم فى خيمة مكان مخصوص لقضاء الحاجة ، وهو عبارة عن أربعة أعمدة طويلة مثبتة فى أربع زوايا ، بين كل عمود وآخر ثلاثة قدام أو أربعة ، ومحاطة بقماش الخيام ، وذلك لأن المسلمين (كما قلت قبل ذلك) يعتبرون من الأمور المعيبة أن يراهم أحد وهم يتبرزون أو يبولون . ومن ناحية أخرى فانهم لو ذهبوا بعيدا جدا لقضاء حاجتهم فقد يضلون الطريق لخيامهم عند العودة .

البدو والقافلة :

وأثناء هذه الرحلة تسبب لصوص البدو فى المتاعب لبعض الحجاج لتسللهم للقافلة عدة مرات ، وذلك أن هؤلاء اللصوص ينقضون على أطراف القافلة ويخطفون ، خصوصا الحجاج البعيدين عن بقية زملائهم ليجعلوا منهم خدما أو مساعدين للجمالة . وعندما يرى هؤلاء البدو حاجا قد استغرق فى النوم فكوا رباط جمله من الأمام ومن الخلف ويقوم أحد اللصوص بقيادة الجمل بعيدا ، بينما يكون الحاج نائما فوقه ، ويقوم اللص الآخر – فى الوقت نفسه – بسحب الجمل التالى ليربطه بجمل آخر بدلا من الجمل المسروق حتى لايتوقف اذا شرعت القافلة فى المسير فتتوقف كل الجمال التى وراءه بطبيعة الحال مما يعنى اكتشاف اللصوص .

وبعد سرقة الجمل براكبه ، يوقظون الحاج النائم على بعد مسافة معقولة من القافلة تجعلهم بعيدين عن الخطر ، وفى بعض الأحيان يقتلونه فورا ، وفى أحيان أخرى يسلبونه ويتركونه يعود للقافلة عاريا .

المدينة (المنورة) :

وفى حوالى اليوم العاشر من هذه الرحلة السهلة بعد

خروجنا من مكة (المكرمة) دخلنا المدينة (المنورة) ، حيث دفن الرسول (صلى الله عليه وسلم) • رغم أننى أعتقد أن المسافة بينهما فى خط مباشر فى الطريق الى مصر لا تزيد عن يومين أو ثلاثة ــ وذلك حتى يتمكن الحجاج من أداء الزيارة وقضاء يومين ثم الرحيل فى اليوم الثالث، والمسلمون الذين يأتون لمكة من الجنوب، كمسلمى الهند وغيرهم لايزورون المدينة (المنورة) وانما يكتفون بزيارة مكة (المكرمة) لبعدها عن خط سيرهم ، لكن الحجاج القادمين من تركيا وبلاد التتر (ترتاريا) ومصر وأفريقيا يظنون أن من واجبهم زيارتها •

والمدينة (المنورة) ليست الا بلدة بائسة يحيطها سور وبها مسجد كبير لكنه لا يقارن بالحرم المكى • وفى أحد أركانه مبنى مساحته حوالى أربع عشرة أو خمس عشرة خطوة مربعة ، به نوافذ ضخمة مغطاة بشبك نحاسى ، وداخل هذا المبنى الصغير بعض المصابيح والزينات وهو مقنطر arched وقد قيل انه يوجد مالا يقل عن ثلاثة آلاف مصباح حول قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو قول غير صحيح ، اذ لا يوجد ــ كما أعتقد ــ أكثر من مائة • اننى أتحدث عما أعرفه ، ورأيته رأى العين ، وفى الوسط يوجد قبر محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وثمة ستارة حريرية تحيط بقبره (صلى الله عليه وسلم) وهى ستارة غير غالية الثمن وغير جميلة ، ولا يسمح للحجاج بالدخول الى هذه الغرفة فلا أحد يدخلها الا الاغوات (الطواشية) للاشراف على المكان وتنظيفه وايقاد المصابيح ، وكل ما يتاح للحجاج هو أن يتعلقوا بالشبابيك وأن ينظروا من خلال الشبك النحاس ويتوسلون لهذا النبى بحماس فائق ووجد شديد (**المترجم : المسلمون لا يتوسلون للنبى صلى الله عليه وسلم وانما لربهم**

وربّ النبى ، وكل ما يفعلونه أمام قبر النبى هو السلام عليه ، وقراءةشىء من القرآن) (★) وقد اخرج سيدى منديله الحريرى من صدره بينما كان واقفا يدعو امام قبر الرسول .

وثمة قصة يرويها بعضهم أن كفن الرسول (صلى الله عليه وسلم) موجود بسقف المسجد بفعل جذب حجر مغناطيسى له . لكن صدقنى انها قصة كاذبة . فعندما نظرت من خلال الشبك النحاسى فقد رأيت ـ كما رأى الحجاج الآخرون ـ أن الستائر التى تغطى القبر لا تصل الى منتصف المسافة من الأرض الى السقف أو حتى العقود المقنطرة ، لذا فمن غير الممكن أن يكون كفنه (صلى الله عليه وسلم) معلقا بالسقف . ولم أسمع أحدا من المسلمين يقول ذلك أو شيئا قريبا منه ، وبالاضافة لقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) هناك قبور خلفائه ، وقبر آخر قد تم اعداده لعيسى بن مريم (عليه السلام) عندما يعود مرة اخرى ، فالمسلمون يعتقدون أن المسيح (عليه السلام) سيعود مرة أخرى بلحمه ، ويظل أربعين سنة قبل أن تقوم الساعة ليؤكد صدق الدين الاسلامى ويقولون ان مخلصنا our Saviour لم يصلب وانما الذى صلب هو شخص آخر يشبهه .

ويتم تزويد المدينة (المنورة) بالمؤن من الحبشة على الساحل الآخر للبحر الأحمر ، فمن الحبشة تأتيهم السفن محملة بالقمح وغير ذلك من الضروريات ، وهى سفن غريبة لم أر لها مثيلا ، فأشرعتها من حصير ، كالحصير الذى يستخدمونه فى بيوتهم ومساجدهم .

(★) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

مغادرة المدينة المنورة :

وبعد أن قضينا في المدينة (المنورة) يومين ، غادرناها في اليوم الثالث ، ولما قطعنا عشرة أيام أخرى قابلنا عددا كبيرا من البدو قدموا لنا كميات وافرة من الفاكهة خاصة الزبيب ، ولا أدرى من أين أتوا بها . ولما وصلنا بعد ذلك بخمسة عشر يوما لمصر قابلنا جمع غفير وقد حملوا جمالهم بالهدايا التى أرسلها الأصدقاء والأقارب للحجاج ، كالحلوى وما الى ذلك . لكن بعض هؤلاء القادمين أتوا بقصد الربح أى لبيع المؤن الطازجة للحجاج والاتجار معهم .

وقبل وصولنا للقاهرة بحوالى عشرة أيام وصلنا لجبل طويل شديد الانحدار يسمى عقبة Ackaba ، عادة ما يهاب الحجاج ـ كثيرا ـ تسلقه ، وقد تعبت الجمال البائسة عند اجتيازه وسقط كثير منها هنا ، وكانت غير مربوطة (بعضها بالبعض الآخر) فرحنا نحثها برفق على المسير ، لكنها كانت تتحرك ببطء شديد بل وتتوقف غالبا . وقبل أن نصل لهذا التل لم ألحظ أى انحدار (تدرج) ولما وصلنا لقمته لم نر الا سهلا .

وقد تجاوزنا جبل سيناء ليلا ، ولم أره فلابد أننى كنت نائما .

ولما كنا على بعد سبعة أيام من القاهرة قابلنا جمع غفير يزيد عن بضع مئات ، وقد أتوا للترحيب بأصدقائهم وأقاربهم . لكن ظلام الليل كان دامسا فكان من الصعب الالتقاء بمن يريدون . ولما بدأت القافلة فى التحرك راحوا ينادون بصوت عال على معارفهم وأقاربهم فاستطاعوا بهذه الوسيلة الالتقاء بهم .

ولما أصبحنا على بعد ثلاثة أيام من القاهرة ، أحضروا لنا جمالا كثيرة محملة بماء النيل لنشرب ، وقبل أن نصل

قاهرة بيـــوم وليلة أتى آلاف المصريين للقيـــانا وكانـــوا
بتهجين بشكل غير عادى • لقد استغرقت الرحلة من مكة
كرمة الى القاهرة سبعة وثلاثين يوما بالاضافة لثلاثة أيام
وقفنا فيها ، فتلك اذن أربعون يوما كاملة كمـــا أخبرتكم
نفا • وطوال الطريق لم نر ــ الا نادرا ــ زروعا خضراء
لا سمعنا تغريد طير أو رأينا حيوانا ، فلا شيء سوى الصحراء
الحجـــارة ، باستثناء قرية اجتزناها ليـــلا كان بهـــا بعض
لأشجار والبساتين ، وقد قطعنـــا واديا يقـــال له نهر النار
Attash al wai ، وكانت الحـــرارة فيه لا تطاق حتى ان الماء
ى القرب كان أحيانا يجف بفعل الحرارة الجهنمية ، لكنـــه
كان من حسن حظنا أننا عبرناه أثناء هطول المطر واعتبر
لحجاج هذا عونا من الله وشكروا الله شكرا كثيرا •

الوصول للقاهرة ، والطاعون :

ولما وصلنا للقاهرة وجدنا الطاعون يحصد الناس حصدا
حتى لقد قيل : انه قضى على ستة آلاف خلال أسبوعين •

رشـــــيد :

لقد أسرعنا بمغادرة القاهرة متجهين الى رشيد ، ومن
رشيد تابعنا الى الاسكندرية ، حيث وجدنا سفينة من الجزائر
على استعداد لنقلنا الى هناك •

الطاعون فى الاسكندرية :

لقـــد كان الطاعـــون مســـتقرا في الاسكندرية فى ذلك
الوقت ، وقد صعد الى ظهر السفينة بعض الأشخاص المصابين
به فسرى الطاعـــون بيننا ، وقد شـــفى بعض ممن أصـــيبوا
وألقينا فى البحر عشرين جثة ممن ماتوا بسببه ، وحقيقة

فقد اعترانى الرعب ، ورحت آمل أن أسترد عافيتى فى الجزائر ، معتقدا أننى لو عشت حتى أصل للجزائر فقد أهرب من الاصابة به ، لكن بمجرد وصولنا لسواحل الجزائر حاصرني الطاعون لكنني نجوت من الموت بفضل عناية الله ٠ لقد ظهر الطاعون تحت ذراعى وظهرت البثور المصاحبة له على ساقى ٠ وبعد ذلك تورمت جدا ، وكنت راغبا فى شقها (اخراج ما بها من صديد)ولكن سيدى قال : ان وقت فتح هذا الخراج (الدمل الكبير) لم يحن بعد ، ونصحنى عبد اسبانى ـ وكان جارا لى ـ أن أشوى بصلة وأغمسها فى الزيت وأضعها على الدمل ففعلت ذلك ، وفى اليوم التالى أصبح الدمل جاهزا للفتح ، فشقه سيدى (★) ، وتم شفائى بفضل من الله ، ولن أنسى فضله أبدا ما حييت ، كما لن أنسى فضله ورحمته التى شملنى بها لعودتى من مكة (المكرمة) ٠

(★) ذكر جوزيف بتس كيف أنه التقى فى الاسكندرية ببحار انجليزى كان زميل دراسة له وطمأنه على أسرته ، وقد أرسل معه بتس خطابا وهدايا لوالديه ـ (الناشر) ٠

التعليقــــات

(١) اعتمدنا اعتمادا أساسيا فى تغطيــة المعلومات المتعلقة بحيــاة جوزيف بتس على ما أورده الرحــالة العـــالم رتشـــادر بيرتـــون Richard Burton فى الملحق الخــامس لكتابه : A pilgrimages to Al-Madina & Mecca, Vol 3, p. 359.

(٢) بالاضافة الى درب الحج المعروف بالكبس (بكسر الكاف وتسكين الباء) وهو الطريق الذى يسلكه حجاج اليمن خاصة عــلى طول جبال الحجاز واليمن التى تحفها سهول من ناحية الشرق وتهامة أو ساحل البحر الأحمر غربيا ، وهو طريق تتوفر به موارد المياه ٠

Burckhardt, J. L. : Travels In Arabia, p. 447.

(٣)أما الأول فهو لودوفيكو دى فارتيما المعروف بالحاج يونس المصرى الذى قام برحلة فى الفترة من ١٥٠٣ الى ١٥٠٩ زار فيها مصر والشام والحجاز واليمن وفارس والهند وأندونيسيا وهناك ما يشير لوصوله لاستراليا ، ثم عاد الى البرتغال بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ووصف أثناء عودته سواحل شرق أفريقيا وبعض جزر المحيط الأطلسى ، ومع أن فارتيما كان ايطالى المولد الا أنه كان يعمل لحساب البرتغال ٠

The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia desert, Arabia Flix, in persia, India and Ethiopia ... Translated to English by J. W. Jones.

وصدرت ترجمتها العربية كاملة فى سلسلة الألف كتاب الثانى ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٣ ٠

(٤)عرفنا قليلا عنه من خلال أشارة د٠ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافى ٠ ص ١٣٩ ٠ الجزائر ، الشركة الوطنية ، ١٩٨١ ٠

(٥) من الكتب الجيدة التى تناولت حروب الجهاد البحرى بعمق كتاب : تاريخ الجــزائر الثقافى من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجرى (١٦ — ٢٠ م) / د٠ أبو القاسم سعد الله ٠ الجزائر ، الشركة الوطنية ، ١٩٨١ ٠ جـ ١ ٠

(٦) انظر حاشية (٣) ٠

(٧) شارك بيتس فى الحرب ضد أسبانيا فى وهران وتحدث عن الأسبان بغير تعاطف وذكر أنهم ـ أى الأسبان ـ كثيرا ما كانوا يغيرون على القرى المجاورة ليلا ليأخذوا معهم الرجال والأطفال والنساء والماشية وكل شىء ٠

بيتس : حقائق عن الاسلام (وقد نقلنا النص آنف الذكر من : تاريخ الجزائر الثقافى تأليف د٠ أبو القاسم سعد الله ٠ ص ١٩٥ ـ الحاشية) ٠

(٨) غمر اليهود سواحل المغرب بعد سقوط غرناطة وازدهرت تجارتهم ، وعملوا بالحرف المهمة كالصياغة والحياكة ، وكان منهم المترجمون ، ووصلوا لمناصب مهمة ، انظر : د٠ أبو القاسم سعد الله : مرجع سابق ص ١٤٦ ٠ كما اتجهوا الى تركيا وكان لهم نفوذ تجارى واقتصادى واسع وشجعوا حركة الجهاد البحرى ضد أوروبا ٠ انظر على سبيل المثال ما فعلته أسرة ناسى اليهودية فى اسطانبول فى بول كولز : العثمانيون فى أوروبا ٠ القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ترجمة د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ٠

(٩) عبد الرحمن عبد الله الشيخ : دور المسلمين فى انهاك الاقتصاد الاسبانى فى القرنين : السادس عشر والسابع عشر ٠ مجلة جامعة الملك عبد العزيز (الآداب والعلوم الانسانية) / المجلد الأول ، ١٩٨٨ (١٤٠٨ م) ٠ مركز النشر العلمى بالجامعة ٠

ونظرا لأن مثل هذه الأفكار قد تكون غير مألوفة للقارىء العام ، فاننا نورد هنا فقرات مطولة من هذا البحث مع اشارة لبعض المصادر الأوربية المهمة ٠ لقد تخصص الباحث المشهور شارلز لى Charles Lea فى الكتابة عن محاكم التفتيش والمسلمين الاسبان ، وراح يجوب الأرشيفات الأوربية وغير الأوربية ، وأصدر مجموعة كتب وبحوث قوية فى هذا المضمار أهمها :

The Moriscos of Spain : the Conversion and Expulsion, Philadelphia, Leo Prothers, 1901.

ومن خلال وثائقه واحصاءاته نخلص الى أن اخراج المسلمين من الأندلس عقب سقوط غرناطة لم يكن مطلبا شعبيا ، فقد كان التلاحم

بين المسلمين والشعب الاسبانى قويا جدا على المستوى الاجتماعى (زيجات متبادلة مثلا) والمستوى الاقتصادى (رخص الأيدى العاملة المسلمة مثلا) وتشابه فى العادات والتقاليد بحكم طول التعايش ، ويؤكد شارلز لى أن الكراهية على المستوى الشعبى كانت موجهة ضد اليهود الذين لم يسمح لهم بالبقاء لحظة واحدة بعد سقوط غرناطة بينما لم يتقرر بشكل نهائى طرد المسلمين الا فى القرن السابع عشر ، ويقرر Charles Lea أن اليهود الذين استقبلتهم الدولة العثمانية راحوا يشجعون من خلال مواقعهم وأموالهم كل نزاع بين المسلمين وغيرهم ، وكانوا يمولون أحيانا الحرب ضد أسبانيا ، وكانوا وفقا لما يقوله الباحث بول كولز Paul Coles يعملون على ألا تنتهى المواجهة بين المسلمين وأوروبا المسيحية . وقد يكون فى قول هؤلاء الباحثين بعض المبالغة لكننا هنا نورد آراء باحثين أوربيين .

(١٠) Encyclopaedia of Religion and ethics. Art : Usuary.

وانظر أيضا :

عبد الرحمن عبد الله الشيخ : حركة اصلاح دينى أوربية لم تلق الاهتمام الكافى : مجلة كلية الآداب – جامعة الملك سعود ، ١٩٨٧ (١٤٠٧ هـ) المجلد ١٤ / العدد الثانى .

(١١) هناك أيضا قافلة الحج اليمنية المعروفة بالكبسى . راجع حاشية ٢ .

(١٢) الداى (بتشديد الدال) كلمة تركية تعنى العم وهو حاكم الجزائر شبه المستقل عن الدولة العثمانية أى أن وضعه كان أشبه بوضع محمد على ، فى مصر بعد ذلك (بدءا من ١٨٠٥) وقد طرد الرياس (بتشديد الياء) وهم البحارة وكذلك الوجق وهم السلطة الباشا العثمانى (الوالى) واستقلوا وعينوا منهم الداى أو العم – حسب التقاليد العثمانية القديمة ، وأصبح هو الحاكم المستبد والباشا أيضا ، باعتباره الممثل الشرعى للسلطان ، فقد رضى السلطان بهذا الوضع فكان يكتفى باصدار فرمان بتثبيت من اختاره الوجق . وقد بدأ نظام الدايات هذا فى الجزائر منذ أواخر القرن السابع عشر .

أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(١٢) يحدثنا بيتس فى كتاب آخر له (حقائق عن الاسلام) عن شيوع اللواط بين الطوائف العثمانية خاصة ويعلل ذلك بأن أفراد

السلطة لم يكونوا يحضرون زوجاتهم معهم ، بل ويذكر أن السلطـة كانت تنظم عملية الفساد هذه خدمة للبحارة وغيرهم ٠

عن أبى القاسم سعد الله ، مرجع سبق ذكره ٠

(١٤) أثناء عودة الرحالة بوركهارت من ينبع الى القاهرة ذكر انه توجد أمام جبل حسانى (بتشديد السين) عدة جزر من بينهـا جزيرة تسمى الحرة ويقطنها بنو عبس ، ٠٠ ويوجـد على جزيرة أخـرى قريبة من الحرة قبر لأحد الأولياء اسـمه الشيخ حسن المرابط ، وحـول القبـر بعض المبانى والأكواخ المنخفضة حيث يقيم أفراد من أسرة بدوية من قبيلة هتيم وهى المسئولة عن حراسة الشيخ حسـن المرابط ، وعادة ما يكون مسار السـفن بالقـرب من هذه الجزيرة ، حيث يرسـل ملاحـو السفن قوارب محملة بالقليل من الذرة لحراس القبر وقد يرسلون بعض السمن والكعك والبن ، وذلك لأن البحارة العرب يعتقدون أن الشيخ حسن يحمى هذه البحار ٠ ومن العادات التى ذكرها بوركهارت أنهم عندما مروا بهـذه الجـزيرة خبز القبطان رغيف خبز كبيرا وأعطى لـكل واحد لقمة صغيرة ليأكلها ترحما على روح الشيخ حسن المرابط ٠٠٠

Burckhardt, pp. 428-29.

(١٥) سلك بيتس كما أخبرنا الطريق البحرى من الجزائر الى الاسكندرية ، لكن هذا ليس هو الطريق الوحيد ، فهناك بالطبع القافلة البرية التى أشار اليهـا اشارات عابرة ، وتنطلق هـذه القـافلة من مقـر اقامة سـلطان المغرب ، فتسير ببطء الى الجـزائر فتونس فطـرابلس ، ومن هناك تتابع سيرها على الساحل المصرى مارة بالاسكندرية أو تتخذ اتجاه وادى النطرون قاصدة القاهرة مباشرة ٠٠٠ وفى بعض الأحيان تستمر القافلة المغربية بعد أداء الحج حتى القـدس ثم الى القاهرة ومن ثم للمغرب ، وتجمع القافلة أثناء سيرها كل الراغبين فى الحج من المناطق التى تمر بهـا ٠

Burckhardt, pp. 253-254.

(١٦) فى أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السـادس عشر ، قدر الرحالة فارتيما الذى زار مكة المكرمة سـنة ١٥٠٣ أبواب المسـجد الحرام بحوالى تسعين بابا أو مائة باب ، وفى بداية القرن التاسع عشر حددها الرحالة بوركهارت ١٨١٥م بتسعة عشر بابا حول كل باب بوابات صغيرة ، وربما كان الاختلاف فى عدد الأبواب راجعا لبعض التوسـعات العمرانية بالاضافة الى أن بعض الرحالة يعد البوابات الرئيسية فقط ويترك ما حولها من أبواب أو منافذ ، بينما آخرون يدخلونها فى الحصر ، وفيما يلى ــ على أية حال ــ ما أورده بوركهارت :

الأسماء الحديثة	الأسماء القديمة
باب السلام : يتكون من ثلاث بوابات صغيرة	باب بنى شيبة
باب النبى : من بابين صغيرين	باب الجنائز
باب العباس : كان باب العباس يوجد في مواجهته	باب السدة
باب على	باب بنى هاشم
باب الزيت	
باب العشرة : بوابتان	باب بازان
باب بغلة : بوابتان	
باب الصفا (خمس بوابات)	باب بنى مخزوم
باب شريف (بوابتين)	باب أجياد
باب المجاهدية (بوابتين)	باب الرحمة
باب زليخة (بوابتين)	باب الشريف عجلان
باب أم هانى	
باب الوداع (بوابتين)	باب الحزورة
باب ابراهيم (المقصود ابراهيم الخياط الذى كان يمتلك دكانا امامه وليس ابراهيم عليه السلام)	باب الخياطين أو باب بنى جمح
باب العمرة أو باب بنى سهم	
باب عتيق	باب عمرو بن العاص أو باب السدرة
باب الباسطية	باب العجلة
باب القطبي (نسبة الى قطب الدين صاحب كتاب تاريخ مكة)	
باب الزيارة (٣ بوابات)	باب دار الندوة
باب الدريبة	باب مدرسة عجلان

وفى الوقت الحاضر ، توجد بوابات أخرى كبوابة عبد العزيز وغير ذلك . (المترجم) .

(١٧) تحظر الشريعة الاسلامية اراقة الدم فى المسجد الحرام أو فى منطقة الحرم المحيطة به ، وعادة ما تحترم هذه الميزة للمسجد الحرام ، لذلك فان كثيرين من الهاربين لسبب أو لآخر يلجأون للمسجد الحرام ، لكن هذه الميزة لم تعطها الشريعة لأى مسجد آخر أو مكان آخر ، ومع هذا فان التاريخ الاسلامى وكذلك الحديث شهد أن السلطات لم تراع ذلك — لأسباب أمنية — فجنود محمد على كانوا يتتبعون الهاربين ويقبضون عليهم وهم متعلقون بأستار الكعبة ٠

Burckhardt, 7th appendix, p. 465,

(١٨) هو السلطان محمد خان الرابع بن ابراهيم الأول ١٦٤٨ — ١٦٨٧ ، وقد قام الوزير الثانى (القائمقام) قره مصطفى بالاتفاق مع العلماء على عزله ، وبقى فى العزلة الى أن توفى ١٦٩٢ ٠ وكانت الأوضاع فى عهده مضطربة ، وخاضت الدولة حروبا مع جمهورية البندقية والنمسا ، كما كانت الأمور فى البلقان غير مستقرة ٠

محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقى ٠ ص ٢٨٩ — ٣٠٤ ٠

اقــرأ فى هــذه الســلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رســل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطــة مقابل نقطــة	الدس هكســلى
الجغرافيا فى مائة عــام	ت · و · فريمــان
الثقــافة والمجتمــع	رايموند وليــامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغــامضة	ايستردبل راى
الرواية الانجليــزية	والتــر آلــن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجــاس
آلهــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشــاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشــم النحــاس
مجمــوعات النقــود	ديفيــد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د · محسن جاسم الموسوى
ديــلان تومــاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفــريد	جــون لويس
الرواية الحــديثة	بــول ويســت
المسرح المصرى المعــاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمــود طــه	أنــور المعــداوى
القــوة النفســية للأهرام	بيل شــول وأدنبيت
فــن الترجمــة	د · صــفاء خــلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلــو
ستندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف ٠ ع ٠ أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د ٠ نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب في الكيمياء	د ٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوه
التطور الحضارى للانسان	جاكوب براونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د ٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم في مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د ٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د ٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة	د ٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن التشكيلى	د ٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د ٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د ٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج · دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	
حـــرب الفضـــاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د · السـيد عليـوة
الميكروكمبيـــوتر	د· مصطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والحدثين
الفكر الأوربى الحديث ٢ جـ	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييـــل بايـر
اعلام الفلسفة السـياسية المعاصرة	انطـونى دى كرسبنى
كتـابة السـيناريو للسينما	دوايت ســـوين
الزمن وقيـــاسه	زافيلسـكى ف · س
اجهـزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـــر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجـــربة اليـــونانية	س · م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسـلامية	د· عاصم محمد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د · سميـسـون ونورمان د· اندرسون
الشـارع المصرى والفـكر	د· أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسـيط الكيميـــاء	فريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهارت
التـذوق السـينمائى	آلان كاســبيار
التخطيط السـياحى	سامى عبـد المعطى
البـــذور الكونيـة	فريد هـــويل شاندرا ويكراما ماسينيخ
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيـروين والايـدز	روى روبرتســون
نجيب محفوظ على الشاشـــــة	هاشـم النحـاس
صـــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لوري
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بيتر
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر · بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د · صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ · كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د · السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس ، آلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا · هاريس
الدليل البيبليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميكائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د· فيليب عطية
السينما العربيـــة	اعداد/ مونى براح وآخرون
دليل تنظيم المتـــاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـــرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليـــات فن الاخراج	زيجمونت هبنـــر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بــول كولنــر
صـــناع الخلود	موريس بيربراير
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج· بتلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
انهم يصنعون البشر ٢ ج	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د· رفيق الصبان
الســـينما الخيالية	بيتر نيكوللز
الســـلطة والفرد	برتراند راصـــل
الأزهر فى ألف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـــة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصـــال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الأداب الأسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتــار	د. أبرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معــالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ . ج . ولــز
الحمـــلات الصليبيـــة	ستيفن رانسيمان
حضـــارة الاســـلام	جوستاف جروتيباوم
رحلة بيرتون ٣ جـ	ريتشارد ف . بيرتون
الحضارة الاسلامية	آدم متز
الطفل ٢ جـ	ارنولد جـــزل
أفريقيا الطريق الآخر	بادي اونيمود
السحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكي
الكون ذلك المجهول	جــلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمـــد زينهم
حــرب المســتقبل	مارتن فان كريفلد
الفلســفة الجــوهرية	سونداري
الاعــلام التطبيقي	فرانسيس ج . برجين

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- باعة الصحف .
- مكتبة الهيئة .
- المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئة .
- منافذ التوزيع فى أماكن وفروع الثقافة الجماهيرية وهى كما يلى :

— الوادى الجديد .. الداخلة والخارجة .
— البحيرة .
— المنيا .
— دمياط .
— فارسكور .
— القليوبية (بنها) .

مطابع الهيئة العامة المصرية للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦٢٧/١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4535 — 1

جوزيف بتس الذي تسمى باسم الحاج يوسف رحالة شاب وقع في الأسر في الجزائر وقام مع مولاه برحلة إلى الديار المقدسة، ومر بمصر فكتب عنها أكثر مما كتب عن الحجاز، والكتاب وثيقة مهمة عن أحوال مصر والحجاز في القرن السابع عشر.

مطابع الهيئه المصرية العامة للكتاب